وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عمار ثليجي بالأغواط
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية

العنوان

الصراع العثماني الاسباني على تونس (1500 – 1574م)

لنيل شهادة الماستر في تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر

إعداد الطالبتان :

- الهام دخية
- عزيزة عيساوي

إشراف الأستاذ :

محمد بن سعيدان

السنة الجامعية 2016–2017

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى من قال الله عزّ وجل فيهما:" وأخفض لهما جناح الذّل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربّياني صغيرا..." .

إلى من رعاني وحماني، إلى رمز العطاء الذي كان سندا لي في حياتي وفي مواصلة دراستي، إلى أشرف إنسان أبي الغالي.

إلى من بجّلها الرحمان، ونهضت لأجلها الأوطان، إلى لحن الحب والعطاء، إلى معزوفة الحنان والوفاء، إليها وحدها أمي الغالية.

إلى أغلى ما أهدتني الحياة، مصباح حياتي ونور طريقي، وتوأم روحي، الذي أحاطني بمشاعر الحبّ والاحترام والتشجيع، وقاسمني هموم هذه المذكرة، وكان عونا لي في إنجاز هذا العمل المتواضع، إلى من سيشاركني حياتي.

إلى من أعتبرها أمي الثانية أختي "خيرة"، التي كانت سندا لي طوال مشواري الدراسي، وإلى زوجها مختار وأبنائها: حياة، الطاهر، إبراهيم الخليل.

إلى صديقتي عزيزة عيساوي التي قاسمتني تعب هذا العمل.

إلى زميلي الأستاذان بلعيد فاروق وعمار مريخ اللذان لم يبخلا عليّ بمساعدتهما في إنجاز هذا العمل.

إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد.

إلى كل من وسعتهم ذاكرتي ولم تسعهم مذكرتي.

إلى كلّ هؤلاء أهدي مذكرة عملي.

إلهام دخيّة

إهداء

إلى من جُعلت الجنة تحت أقدامها، إلى أمي الحبيبة التي ضحّت من أجلي وإلى أبي العزيز الذي يتمنى نجاحي في الدراسة.

إلى إخوتي(عطاء الله ومحمد الأمين، مصطفى والصغير الغالي يوسف، ذهيبة، مباركة، والمحبوبة الصغيرة هبة الرحمان).

إلى كل الأقارب الأخوال والخالات، وأعمامي والعمّات وأولادهم، وجدي وجدّتي أطال الله في عمرها وشفاها.

وإلى بنات العم: فاطنة، صبرينة.

وإلى كلّ من يحمل لقب عيساوي وبلخادم.

إلى صديقاتي: أمينة، رقية، منيرة.

وإلى صديقتي وزميلتي وحبيبتي التي قاسمتني تعب وهموم هذا العمل إلهام دخيّة .

إلى كل أساتذة وطلبة التاريخ.

إلى كل من وسعه قلبي ولم تسعه ورقتي أهديه ثمرة هذا العمل.

عيساوي عزيزة

شكر وتقدير

نخلص الشكر والإمتنان لله العليّ القدير بتوفيقه لنا بإنجاز هذا العمل وتقديمه.

كما نتقدم بالشكر للأستاذ المشرف "بن سعيدان محمد" الذي اشرف علينا في هذا العمل بدون كلل أو ملل وكامل الشكر والتقدير على الجهد الذي بذله معنا، ولم يبخل علينا فيه بأي ذرّة جهد أو نصيحة مع إرشاداته.

وإلى كل أساتذة التاريخ بجامعة عمار ثليجي بالأغواط .

وإلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل ولو بكلمة طيّبة.

قائمة المختصرات

الرمز	المعنى
ص ص	صفحات متتابعة
ج	جزء
ط	طبعة
تق	تقديم
تح	تحقيق
تع	تعريب
د ط	دون طبعة
ش. و. ن. إ	الشركة الوطنية للنشر والإشهار

مقدمة

الصراع الإسلامي المسيحي عُرف منذ العصور الوسطى، واشتدّ كثيرا مع الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي من سنة 1095–1291م، حيث كانت آخر حملة صليبية على المسلمين التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع على تونس لكنّها ما إن فشلت وتوفّي الملك الفرنسي بالوباء.

أمّا في العصور الحديثة فقد بدأت إسبانيا شنّ حرب ضدّ مسلمي الأندلس ولاحقتهم حتى سواحل إفريقيا، منهم من فرّ نحو المغرب والجزائر وطرابلس ومنهم من حطّ الرحال بإفريقية فلاحقتهم واتخذتها ذريعة لاحتلال السواحل التونسية، حيث كان لإسبانيا عدة دوافع وأهداف من احتلال السواحل التونسية وساعدتها في ذلك عدة عوامل وظروف، بالإضافة إلى عدة عوامل داخلية سهّلت هذا الاحتلال، منها الفسيفساء الداخلية التي كانت تعيشها البلاد التونسية، بالإضافة إلى النزاع بين أفراد العائلة الحاكمة وضعف الملوك الحفصيين وعدم استغنائهم عن مناصبهم شجّعهم على الاستعانة بأعداء الدين من أجل تثبيت حكمهم الذي كان على حساب مصلحة الرّعية، مما أدى إلى ضعف وتقهقر البلاد وجعلها صيدا سهلا أما الغُزاة .

وهنا تظهر قوّة أخرى والتي تتمثل في الدولة العثمانية، الذي كان ارتباطها بتونس على أساس الشعارات التي رفعها العثمانيون، ألى وهي الدفاع عن دار الإسلام والمسلمين، من خلال الجهاد البحري، كما تعتبر تونس إحدى ولايات الثغور، وأكثر من هذا فهي حلقة الاتصال بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي، كما كانت الدولة العثمانية في هذه الفترة في صراع مع إمبراطورية شارلكان التي تمتد جبهتها من أوروبا الوسطى إلى البحر المتوسط، لذا استدعى السلطان سليمان القانوني خير الدين غلى إسطنبول مانحا إياه لقب القبطان وكلّفه بقيادة الهجومات البحرية ضدّ إمبراطورية شارل الخامس، من هنا برزت أهمية تونس في إطار هذه الحرب الشاملة والتي جنّت فيها الإمبراطوريتان كلّ قواتها مع احتلال مساحات واسعة، وفرض النفوذ على الدويلات الضعيفة مثل الدولة الحفصية.

صارت تونس محل صراع عنيف بين الدولة العثمانية والإسبانية منذ العقد الثالث من القرن السادس عشر، الذي استهلّ ببسط خير الدين نفوذه على تونس سنة(942هـ/1534م)، حيث لجئ السلطان الحفصي مذلولاً مستنجدًا بشارل الخامس على بني قومه وحماة دينه، وكان شارل الخامس قد

أرسل سنة 1533م بعثة تجسسية برئاسة "أوشد" لدراسته الأوضاع في تونس فأبلغه هذا الأخير أنّ الأوضاع مستعدّة كل الاستعداد لفتح أبوابها أمام الغُزاة الإسبان، لكن شاء القدر أن سبقه إليها خير الدين سنة 1534م كما ذكرنا سابقا، وقد اعتبر شارلكان ضم تونس للممتلكات العثمانية تهديدا لممتلكاته بإيطاليا، فأعدّ حملة ضخمة على تونس ظاهرها حملة وقائية من العثمانيين وباطنها احتلال استيطاني، وبعد إمضاء السلطان الحفي للمعاهدة المبرمة بينه وبين الإمبراطور شارلكان انكشفت نوايا الصليبيين، وهنا زاد عزم واصرار الدولة العثمانية على ضرورة تصفية سواحل الشمال الإفريقي من الوجود الإسباني الصليبي.

– دوافع اختيار الموضوع:

1– اقتراح أستاذنا الفاضل محمد بن سعيدان جزاه الله خيرًا وتشجيعه لنا على خوض غمار دراسة هذا الموضوع.

2– هناك دوافع ذاتية نذكر منها الانجذاب الشخصي نحو حب الاطلاع واكتشاف تاريخ تونس.

3– بما أنّ تونس من بلدان المغرب العربي وبحكم قربها من الجزائر أخذنا الفضول للتعرف عليها أكثر وأكثر.

4– أنّ سبب اختيارنا للقرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي، هي تلك الأحداث الكبرى التي حدثت في الجهة الغربية للبحر المتوسط في إطار الصراع بين ضفّتيها حول بسط النفوذ والسيطرة.

5– دراسة هذه الفترة التي لم يُكتب عنها إلا الشيء القليل نظرا لقصرها وابراز أهم النقاط عن تاريخ تونس الحديث في الفترة الإسبانية والعثمانية.

6–كوْن تاريخ تونس الحديث لم يحظا باهتمام كبير عند الباحثين الجزائريين.

– الإطار الزّماني والمكاني للدراسة:

حددنا الإطار الزماني بفترة ضعف الدولة الحفصية وتوليّ الحسن الحفصي الحكم مع وفاة والده سنة(932هـ/1526م)، الذي تجلىّ في عهده ضعف الدولة الحفصية إلى سنة (982هـ/1574م) التي تمّ فيها التحرير النهائي لتونس من الاحتلال الإسباني والقضاء على الوجود الحفصي، والحاق تونس بممتلكات الدولة العثمانية.

أمّا الإطار المكاني يتمثل في الضفة الجنوبية التي تمثّل البحر الأبيض المتوسط (تونس)، الضفة الشمالية (إسبانيا).

– إشكالية الدراسة:

كانت تونس محل نزاع بين الإسبان والعثمانيين خلال القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي، حيث كان هذا الصراع مختلفا على السواحل المغاربية الأخرى (الجزائر. المغرب. طرابلس)، وذلك يعود إلى طبيعة نظام السلطنة الحفصية وضعف نظامها، بالإضافة إلى استنجاد حكامها بالإسبان وتحالفهم معهم ضدّ العثمانيين، لذلك فإنّ السؤال الذي يطرح نفسه هو:

هل كانت العلاقات الحفصية الإسبانية دافع أساسي في مجيئ العثمانيين إلى تونس ودخولهم في صراع مع الإسبان ؟.

وقد حملنا هذا على طرح جملة من التساؤلات، تتمثل في:

-كيف تجلىّ الصراع الإسباني العثماني على تونس خلال القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي؟ وماهي أهدافه الحقيقية؟ وما مدى تداعياته على الطرفين وعلى البلاد التونسية؟.

-هل كان لطبيعة نظام الدولة الحفصية الضعيف دور في تشجيع عملية الاحتلال الإسباني للسواحل التونسية؟ وهل نجحت في ذلك؟.

– ماهي العوائق التي واجهت خير الدين عند ضمّه لتونس؟.

-إنّ دخول بعض المناطق التونسية تحت لواء القادة العثمانيين عرف ترحيبا من البعض ورفض الاعتراف بهم من البعض الآخر، فهل كان هذا وفاء لحكامهم الحفصيين، أما أنّ خوفهم من انتقام الإسبان هو الذي دفعهم إلى ذلك؟.

- هل وضع التدخل العثماني في تونس سنة(982هـ/1574م) حدًا للدولة الحفصية والأطماع الإسبانية بها، وماهي تداعيات نجاح هذه الحملة؟.

-إلى أي مدى نجحت الدولة العثمانية في رساء قواعدها في تونس بعد ضمّها إليها؟.

- الخطة المعتمدة:

اعتمدنا على خطة مُحكمة تضمّنت مقدمة وفصل تمهيدي وفصلين، حيث يتفرع كلّ فصل إلى مباحث.

تعرّضنا في **المقدمة** إلى التعريف بالموضوع، ودواعي اختيارنا له، والإشكالية المطروحة، وذكر بعض الدراسات السابقة لموضوع الدراسة، والمنهج المتبع والخطة المعتمدة في البحث، ثم المصادر والمراجع الخاصة بالدراسة، وكذلك الصعوبات المعترضة في هذا البحث.

الفصل التمهيدي: عنوناه بلمحة جغرافية وتاريخية لتونس وتناولنا فيه تعريف مدينة تونس جغرافيا وذكرنا موقعها الجغرافي وكذلك الموقع والامتداد، والسهول الساحلية وطبيعة المناخ والثروة المائية لتونس، وتطرقنا للمحة تاريخية عن تونس، وعرفنا تونس تاريخيا وعرفنا حصن حلق الوادي،وبعدها تطرقنا إلى ذكر الدولة الحفصية فذكرنا أصل ونسب الحفصيين وتطرقنا إلى عهد الضعف والتقهقر وأسباب سقوط الدولة الحفصية

الفصل الأول :جاء بعنوان الاحتلال الإسباني لتونس،تناولنا أسباب ودوافع توجه أنظار الإسبان غلى بلاد المغرب، فذكرنا اهم الدوافع الإسبانية، وبعدها كيفية النزول الإسباني على السواحل الحفصية وطبيعة العلاقة بين الإسبان الحكام الحفصيين، وكذلك تكلّمنا عن تدخل الدولة العثمانية لإنقاذ السواحل المغربية من التحرّشات الإسبانية، تطرقنا إلى ظهور الأخوين خير الدين وعروج في

الحوض المتوسط ومواجهتهم للإسبان، وشرحنا كيفية ضّم خير الدين لتونس، ومعاركه مع الحسن الحفصي وهزيمة هذا الأخير أمام خير الدين، شرحنا بالتفصيل حملة شارلكان على تونس وأوردنا أسباب الحملة التي من أهمها استنجاد السلطان الحسن الحفصي بشارلكان، وذكرنا تحضيرات الحملة وهجوم شارلكان على تونس وفي الأخير نتائج هذه الحملة.

الفصل الثاني :جاء بعنوان تونس بين القوة الإسبانية والعثمانية، استهلينا بذكر بالنفوذ الإسباني الحفصي، وتحالف الحكام الحفصيين مع الإسبان، وطبيعة علاقتهم بالدولة العثمانية، وتكلمنا عن تحرير المدن التونسية من الاحتلال الإسباني، وذكرنا أهم شخصيتان هما درغوث باشا والعلج علي، والدور الذي لعباه في استرجاع تونس، كما وضّحنا أحداث معركة ليبانت وأهم نتائجها وتداعياتها على كلّ الأطراف، فقد فصّلنا عن حملة سنان باشا وقضائه على الوجود الإسباني الحفصي، وكيفية ضمّ تونس نهائيا للدولة العثمانية سنة 1574م، وانجازات سنان باشا فيها وتنظيم شؤونها بعد أن أضحت إيّالة عثمانية.

– الهدف من هذه الدراسة:

أنّ الهدف من هه الدراسة، هو توضيح طبيعة الصراع القائم بين القوتان الإسبانية والعثمانية على تونس خلال القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي، ومعرفة عوامل ودوافع وأسباب ومراحل ونتائج هذا الصراع.

– الدراسات السابقة:

لم يحظى تاريخ القرن السادس عشر ميلادي باهتمام مكثّف من قبل المدرسة التاريخية الوطنية، وقليل هم المؤرخون الذين تعاملوا مع هذه الفترة من التاريخ، وذلك يعود أنّ التاريخ الحفصي كان مستخرجا من مصادر أجنبية ليست منزّهة عن الانحياز مثل مذكرات الزوّار والتجار والسفراء الأجانب والجواسيس الإسبان.

وبالرغم من قلة الدراسات التي تتحدث عن موضوعنا المتمثل في "الصراع الإسباني العثماني على تونس 1500-1574م" إلا أننا نذكر:

من الجانب الأوروبي: روباربرنشفيك الذي اعتمد على وثائق محلية وأخرى أجنبية ، كربخال مرمول في كتابه إفريقيا الجزء الثالث.

ومن الجانب الإسلامي: فقد كتب عن هذا الموضوع ابن أبي دينار في كتابه المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، كذلك أحمد ابن أبي الضياف في كتابه إتّحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، وأيضا الوزير السرّاج في كتابه الحلل السندسية في الأخبار التونسية، وأحمد العروسي المطوي في كتابه السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، ورسالة الشافعي حول علاقات الإيّالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن السادس عشر ميلادي.

- المنهج المتّبع في الدراسة:

أمّا المنهج المتبع فقد اعتمدنا على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، ففي تتبع الأحداث التاريخية استعملنا المنهج التاريخي أمّأ المنهج الوصفي التحليلي فلتحليل الوقائع وشرحها بموضوعية.

- عرض المصادر والمراجع الخاصة بالدراسة:

لإنجاز هذا البحث إستعنّا بمجموعة من المصادر والمراجع التي يمكن تصنيفها كالتالي:

1-المصادر:

-**مذكرات خير الدين بربروس:** ترجمة محمد درّاج، ذلك أنّ السلطان العثماني سليمان القانوني طلب منه تدوين كل الأحداث التي عاشها منذ خروجه من جزيرة مدلي، وقد استعّنا بهذا الكتاب خصوصا في الفصل الأول فيما يخص ظهور الأخوين خير الدين وعروج في الحوض المتوسط، ومواجهتهم الإسبان في بجاية وتحرير جيجل، وشرح بالتفصيل ضم خير الدين لتونس، ومواجهته للسلطان حسن الحفصي وشارلكان.

-**كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس:** لمؤلفه بن أبي دينار الرّعيني القيرواني، وقد استفدنا منه كثيرا في الفصل الثاني وبالأخص في المبحثين الأول والثاني في ذكر نهاية الحسن الحفصي، وعلاقة أحمد الحفصي بالإسبان والعثمانيين، وكذلك دور العلج علي في استرجاع تونس

2- المراجع:

- **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي:** لصاحبه محمد المطوي العروسي، وهو أهم مرجع أفادنا في دراستنا لهذا الموضوع، حيث يشمل الموضوع كاملا، وقد استفدنا منه تقريبا في كل الفصول، في دراستنا للدولة الحفصية النشأة وذكر حكامها خصوصا الحسن الحفصي وابنه أحمد، ونهاية الحسن الحفصي، وكذلك في العلاقة بين الإسبان وملوك الدولة الحفصية، والغزو الإسباني للسواحل الحفصية وكذلك عن حملة شارلكان عن تونس، والمعاهدة المبرمة بين الحسن الحفصي وشارلكان .

-**الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا:** ألّفه عزيز سامح ألتر، وترجمه محمود علي عامر، بحيث كان الكتاب ذا نفع كبير لنا لاشتماله على معلومات كثيرة تخدم موضوع البحث، وقد خدم موضوعي بشكل جيد، خاصة في الفصل الثاني حيث أنه يحتوي على تعريف شخصيات الفصل ويتحدث عن معارك علي باشا مع الإسبان واسترداد تونس سنة 1569م.

- الصعوبات المعترضة:

في حقيقة الأمر لم تعترضنا صعوبات كثيرة أو عراقيل عويصة، فقط بعض العراقيل الصغيرة، كالتأخر في الموافقة على الموضوع من طرف إدارة الكلية، بالإضافة إلى صعوبة جمع المادة، وكثرة المعلومات وتشابكها، وربطنا بتاريخ محدد في موضوع دراستنا وضرورة حصر المعلومات ضمن التاريخ المحدد والذي هو من 1500 إلى 1574م ،كذلك سطحية الطرح الذي تناولته المصادر والمراجع، بالإضافة إلى العامل الزمني وضيق الوقت.

الفصل التمهيدي

لمحة جغرافية وتاريخية لتونس

المبحث الأول: لمحة جغرافية عن تونس

1-إقليم تونس

2- الموقع الجغرافي

المبحث الثاني: لمحة تاريخية عن تونس

1-تعريف تونس تاريخيا

2-تونس عاصمة الإقليم

3-حصن حلق الوادي

المبحث الثالث: الدولة الحفصية(628هـ-943هـ)(1229م-1536م)

1-أصل ونسب الحفصيين

2-انحطاط وضعف الدولة الحفصية

3-أسباب سقوط الدولة الحفصية

المبحث الأول

لمحة جغرافية عن تونس

1 – إقليم تونس:

كان إقليم تونس يسمى إفريقية، وبه كانت في القديم مدينة قرطاجة وهو الإقليم الثاني من هذه المملكة حسب الترتيب، ويحده من جهة الغرب إقليم قسنطينة، ومن جهة الشرق إقليم طرابلس، ومن الجنوب جبال الأطلس وإقليم الزاب وجزء من نوميديا وليبيا الشرقية، أما من الشمال فيحده البحر المتوسط ما بين مصب نهر مجردة عند بنزرت ومصب نهر قابس الذي كان يسمى في القديم"تريتون"، فهذا الإقليم مترامي الأطراف يحتوي عددًا من المدن والقرى[1].

ومدينة تونس في جوف خارج من البحر وهي على بحيرة مختصرة، وعرضها أكثر من طولها وذلك أن طولها ستة أميال وعرضها ثمانية أميال، ولها فم يتصل بالبحر وهو المسمى فم الوادي، وذلك أن هذه البحيرة لم تكن قبل وإنما حفر في البّر، حفير انتهى به إلى مدينة تونس ومن فم هذه البحيرة إلى مدينة قرطاجنة، ثلاث أميال ونصف. ذكر صاحب الجغرافية أنها قديمة لا شك فيه لقول غيره وذكر سبب فتحها وكذلك حصر البحيرة يدُل أنه كان قبل الإسلام، كانت قرطاجنة حائلة بينها وبين البحر بعيد عنها جدا وإنما احدث البحر بعد خراب قرطاجنة، وما ذكره ابن الشّماع أنها كانت بساتين ومزارع تشهد له الآبار التي في وسطها، وربما وقع فيها صيّادو السمك أحيانايتجنبون مواضعها ولهم بها خيّرة[2].

2 –الموقع الجغرافي:

أ– الموقع والامتداد:

تونس هي أصغر بلدان شمال إفريقيا مساحة (163610 كلم^2)، وأقلها جبالا وأكثرها تنوعا من حيث أديم الأرض واختلاف الجو، وتكوّن مع الجزائر والمغرب ما يسمى بدول المغرب العربي.

---

(1) كربخالمارمول: **إفريقيا**، ج3، تج. عمد جعي (وآخرون)، د. ط، دار النشر المعرفة، الرباط،1988–1989، ص17.

(2) ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، ط1، المطبعة التونسية، 1286م، ص 06 .

تمتد بين خطي عرض 30° و 38° شمالي خط الاستواء،وبين خطي طول 98.5°و 11.6° شرقي غرينيتش،وتحدها الجزائر غربا، وليبيا من الجنوب الشرقي، أما في الشمال والشرق يحدها المتوسط، حيث تمتد بعض الجزر التابعة لها، وأهمها جربة وكركنة، يقترب شمال شرق تونس من جزيرة صقلية الإيطالية مكونا مضيق صقلية–تونس (140 كلم). الذي يعتبر بمثابة الحد الفاصل بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي[1].

ب–السهول الساحلية :

تمتد في شمال و شرق البلاد بطول 1300 كلم.

– **السهل الشمالي**: يمتد بين شواطئ المتوسط وسفوح جبال الأطلس وهو ضيق إجمالا بحيث لا يتسع إلا حول خليج تونس. يتميز هذا السهل بتربته السوداء الخصبة، وخاصة في سهل ماطر وباجة، كما يتميز بكثرة مياهه ونباتاته وغاباته وينتهي في الشمال الشرقي لشبه جزيرة شريك،التي درجأهل البلاد على تسميتها باسم"الوطن القبلي"، ويمتد على هذا الساحل خليج تونس، حيث يمُر نهر المجردة الذي يعتبر أهم أنهار البلاد.

– **السهل الشرقي**: تواجه تونس الحوض الشرقي للمتوسط ابتداء من "الوطن القبلي" بمنطقة توصف (دون غيرها) تونس بأنها "الساحل" وهي أكبر أقاليم تونس كثافة بالسكان،تبدأ في النفيضة وتنتهي عند مدينة صفاقس عاصمة الجنوب بطول حوالي 300 كلم وبمُعدل عرض 20 إلى 80 كلم (عاصمتها مدينة سوسة) وأرض هذا الساحل مستوية وخصبة،فيها بعض المستنقعات وأهمها مستنقع المنستيرومستنقع الهاني، أما شواطئ هذا الساحل فهي صخرية في الشمال، رملية في الجنوب، وتُكوّن بعض الخلجان الطبيعية المهمة وأبرزها الحمامات وقابس[2].

–**الأقاليم الجبلية**: تمتد في شمال غرب البلاد وتلي السهول الساحلية مباشرة، وهي تشمل الأطراف الشرقية القليلة الارتفاع من سلاسل أطلس التّل والصحراوي، التي تمتد على طول الساحل الشمالي لدول المغرب العربي، وهي تتّجه في تونس نحو الشمال الشرقي، مخلفة فيما بينها عددا من الوديان والسهول المرتفعة المهمة، وأهمها وادي نهر المجرّدة،ووادي سليانة،ووادي نهر مليانة، وسهل سرسالمرتفع،

(1)عاطف عبيد: **قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم**،د. ط، موسوعة ناشر في جميع أنحاء العالم، 1998–1999م، ص06 .

(2) **عبيد**: ص 8–9 .

أما أشهر جبال هذه السلاسل فهي جبل الشغبي (1544م) وجبال عين دراهم (1000م)بالإضافة إلى جبال مقعد وخمير ونفزة[1].

–إقليم الهضاب: يمتد جنوب الإقليم الجبلي، وغرب الساحل الشرقي، وهو عبارة عن هضاب مستوية السطح تمتد بمعدل ارتفاع500 م، ترتفع في الغرب حيث تنحدر منها مجاري مائية ذات تصريف داخلي، وأهمهاوادي مرسالة ووادي زرود، وتُعرف هذه المناطق بخضوعها للماء، بحيث تفيض أنهارها إذا أمطرت فتُغرق ما حولها وتَجرف أديم الأرض، وإذا انحبست الأمطار جفت الأرض وتشققت .

–منطقة الشطوط والبحيرات والصحراء: تنخفض الأرض في بعض المناطق الغربية الجنوبية من تونس عند الحدود الجزائرية بحيث تصل إلى ما دونمستوى البحر المتوسط، فتُكوّن بحيرات واسعة تسمى"الشطوط" وأهمها شط الجريد، وشط الغرسة وشط الفجاج، ثم تمتد مساحات الجنوبفي تدرج نحو الجفاف ورمال الصحراء،ويرافقه تدرّج مماثل في ابتعاد المدن عن بعضها البعض و ضعف كثافة السكان،وظهور الواحات بنخيلها، بالإضافة إلى ظهور بعض الهضاب والمرتفعات والكثبان الرملية التي يفصلها سهل جفارة عن المتوسط. أما أقصى جنوب تونس فهو عبارة عن مرتفعات هضبية (500–1000م) تطل على البحر المتوسط عبر سهل ساحلي جاف.

ج–المناخ والثروة المائية:

يتدرج مناخ تونس المتوسطي في الشّمال إلى صحراوي في الجنوب، ففي الشمال تعرف البلاد مناخا معتدلا شتاء (مع معدل حرارة 27°)، وأما في الداخل فترتفع درجات الحرارة قليلا، وتَقِل كميات الأمطار بسبب الحواجز الجبلية (الأطلس)، التي تمنع وصول مؤثرات الرياح المتوسطية الرطبة، وتزيد الحرارة في الربيع والصيف مع هبوب رياح"السيروكو" والسموم الحارة وتصل الحرارة إلى حوالي 40°درجة وبخاصة في جنوب وسط البلاد[2].

أما أمطار الشمال، فهي الأكثر في البلاد، وتتراوح بين 600 ملم على السواحل و1300 ملم على المرتفعات،وتقل هذه الأمطار في الهضاب الوسطى وسهل سرس، حيث تتراوح بين 400 و600ملم في

(1)عاطف عبيد: **مرجع سابق**، ص8 .

(2)عبيد: ص8، 9.

السنة، أما المناطق الجنوبية من البلاد فيسيطر عليها الجفاف بمقدار التوجه نحو الداخل حيث يسيطر المناخ الصحراوي الحار.ومعدل سقوط الأمطار يتراوح بين 400 و200 ملم في السنة .

هذا من حيث المناخ، أما من حيث المياه فتونس فقيرة إجمالا بثروتها المائية، باستثناءالمناطق الشمالية التي تُروى من مياه الأمطار، بالإضافة إلى نهر المجردة (416 كلم) الذي ينبع من الجزائر، وينتهي بدلتناضخمة على المتوسط،شمالي مدينة تونس وتغذية روافد عديدة، أهمها نهر ملاق.بينما يصب نهر المليانة مياهه مباشرة في البحر غربي مدينة تونس، أما في وسط البلاد وجنوبها،فإن الأنهار قليلة، وهي نادرا ما تصل إلى المتوسط لقلة الأمطار التي تغذيها، وتتدفق المياه عند نزول الأمطار على نحو بمنعالانسياب العادي ويحدث الفيضانات[1].

أما البحيرات فأهمها: بحيرة تونس،وبحيرة بنزرت،وبحيرة أشكل، وتقع جميعها فيشمال البلاد، وهي تمثل أحواضا طبيعية للسمك. أما في الوسط والجنوب فبحيراتها كبيرة تراها في الخريطة، ولا ترى منها في الواقع إذا انقضى فصل الشتاء إلا بريق الأملاح التي يتركها التبخر فوق أرضها، باستثناء بحيرة "الكلبية "في منطقة الساحل[2].

(1) عاطفعبيد: **مرجع سابق**، ص10.

(2) **نفسه**، ص10 .

المبحث الثاني

لمحة تاريخية عن تونس

1 –تعريف تونس تاريخيا:

قال ابن الشّماع مدينة تونس هي إسلامية أحدثت بعد الثمانين من الهجرة، وكان أبو جعفر المنصور العباسي إذا قدم عليه رسول صاحب القيروان يقول له ما فعلَت إحدى القيروانين يعني تونس تعظيما لها، وهي اليوم قاعدة البلاد الإفريقية، ومدينة تونس في ذاتها قديمة اسمها في التواريخ "ترشيش" ولما افتتحها المسلمون وأحدثوا البناء بها سموها تونس واتخذوا بها المنازل والديار وكان نزلهم بها في سنة ثمانين فلذلك نسبت إلى بني أمية ولم يكن قبل ذلك ينزلها أحد من المسلمين، وسميت تونس لأن المسلمين لما فتحوا إفريقية كانوا ينزلون بإيزاء صومعة ترشيش ويتناسون براهب هناك فيقولون هذه الصومعة تونس فلازمها هذا الإسم، ذُكر أنّ العرب كانوا يسمعون أصوات الرهبان طول الليل في صوامعهم فيتناسون بهم فقالوا هذه البقعة تونس، وقال ابن الشّباط وجدوا زيتونة منفردة في موقع المسجد فقالوا هذه تونس، وسمي المسجد بجامع الزيتونة وذكر أنّ لتونس خمسة أسماء: ترشيش، وتونس وقيل تانس، والحضراء والخضراء والدرجة العليا، فترشيشاسمها في القديم، وتونس حادث لها اشتقاق من التانيس،والحضراء لأنها حضرة السلاطين من بني حفص، والخضراء لكثرة زيتونها والزيتون لا يزال أخضر طول الزمان وهي الشجرة المباركة، أو لأن خيراتها كثيرة عن غيرها وسعة أرزاقها، فقد يقال لمن هم في سعة من الرزق خَضر الرابع، فلذلك عُبّر عنها بالخضراء، والدرجة العليا قبل لأن بها الجامع الأعظم وقيل لارتفاعها عن غيرها من البلدانوارتفاع صيتها في كل أوان[1].

وتونس لا شك أنها قديمة البناء، وكانت معاصرة لقرطاجنة، واسمهاترشيش فقيل هذا الاسم لها من قديم الزمان الذي هم تونس[2]. وبالجملة فإن مدينة تونس لها حظ وافر، وحسن باهر حازت قصبات السبق في البلاد الغربية وعَظُم شأنها بين جيرانها ولا سيما في عهد الدولة التركية، خلّد الله أيامها، وسير بالعدل أحكامها، تميزت بجميع المحاسن، واتسعت عمارتها، وكثرت خيراتها، وعمرت فيها الأسواق والدُور، وبنيت فيها المنازل والقصور، ظهر فيها كلّ حسن غريب، وهاجر إليها البعيد

(1)ابن أبي دينار:**مصدر سابق**، ص ص6-8.

(2) **نفسه** : ص9.

والقريب، وطابق الاسم المسمى كما يقال تونس الغريب، إلّا أنها في هذا الزمان أصيبت بالمحن، وقام بها سوق الخوف من بعد إلا من شدة الخوف، عسى الله أن يجعل بعد العسر يسرًا، وأعلاها ولله الحمد لهم أخلاق رضية ونفوس أبية وعقل ثاقب، ورأي صائب[1].

ظلت هذه الأخيرة حتى الفتح الإسلامي قرية متواضعة تُعرفبتينيس أو تونيس،وبعد استيلاء حسان بن النعمان على قرطاجة في 701 م أخذ من تينيس أو ترشيش، كما عرفها العرب قاعدة بحرية لمواجهة البزنطيين، وعرفت تطورا عمرانيا عندما أقام بها الحبحاب جامع الزيتونة (732م)، فتزايدت أهميتها وأصبحت على عهد الحمّاديين مركز إمارة بني خرسان مستقلة في القرن 12 م، وعندما استولى عليها الموحدون(1160م) جعلوها قاعدة لإفريقيا، وعندما انقسمت دولتهم ظهرت بها الدولة الحفصية التي امتدت سلطتها من طرابلس إلى بجاية (1229م–1574م) وأثناء ذلك توسع عمران تونس واستقر بها المهاجرون الأندلسيون وعند ضعف الحفصيين أصبحت محل نزاعبين الإسبان والعثمانيين، فاستولى عليها شارلكان في 1535م، واسترجعها سنان باشا 1574م ليجعل منها عاصمة لباشوية عثمانية [2].

2– تونس عاصمة الإقليم:

تونس مدينة عظيمة بناها العرب الأولون الذين جاءوا إلى إفريقية من بلاد العرب السعيدة تحت حكم أميرهم صاحب إفريقية، كانت في أول أمرها[3] عمارة قليل ثم توسعت بما حمل إليها من أنقاذ قرطاجة، ذلك لأن العرب أتباع محمد الذين جاءوا في جيش عقبة لما رأوا أنهم غير آمنين في قرطاجة لما يحتمل من أنجاد أوروبا لمن وقع غزوها عليهم من النصارى تركوها واستقروا في تونس ومكثوا بها عدة ايام، وفي أثناء ذلك شيدوا بها عددا من المباني وزينوها بالعمران، ولكنهم ما لبثوا أن غادروها فأقاموا بمكان يبعد عنها بنحو 30 فرسخا جهة الشرق حيث بنو القيروان بعيدا عن البحر بأربعة فراسخ ضفة بحيرة حلق الوادي، وهي واقعة في بسيط من الأرض، وفوق مرتفع مشرق على هذه الجهات من جهة الغرب توجد قلعة غير محصنة و مسجد و برج عالي رائق البناء، ويوجد رَبضان كبيران يضم أحدهما أزيد من ألفي دار يوجد عند الباب الشمالي وبذلك فهو أكبر من المدينة، أما

(1)ابن أبي دينار: **مصدر سابق**،ص ص14–15 .

(2) اوهابنسترايت: **رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م**، تع. ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس،2008م، ص113.

(3) كربخال مارمول: **مصدر سابق**، ص19.

الربض الأخير فيقع جهة الجنوب، وبه ما يقدر بألف دار، غير أن مجموع ما في تونس وأرباضها من الدور المسكونة يزيد عن العشرين ألفًا، والأزقة والساحات في غير انتظام[1].

3- حصن حلق الوادي:

لسان بحري يصل تونس بالبحر، وتفصله مرتفعات عن قرطاج، عُرفت عند الأوروبيين بلاغوليت (La Goulette)، وهيكلمة إيطالية محرفة(Goleta) من تسمية حلق الوادي العربية، ارتبط تاريخ هذه القلعة بمدينة تونس التي تفصلها عنها مرتفعات البلفيدير(Belvèdère)، شهدت العديد من المعارك الحاسمة منها استيلاء خير الدين على مدينة تونس في 1534م، وحملة شارلكان على تونس في 1535م الذي حول قلعة حلق الوادي إلى مقر الحكم الإسباني بتونس مع بسط الحماية الإسبانية على الدولة الحفصية. اهتم بها الدون خوان النمساوي، فعمل على تجديد عمارتها في 1573م بعد انتصاره في معركة ليبانت البحرية على العثمانيين، لكن الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا والقوات المساندة له تمكن من الاستيلاء عليها واسترجاع تونس وإلحاقها بالدولة العثمانية في 1574م[2].

(1) كربخال مارمول: **مصدر سابق**، ص20.

(2) هابنسترايت: **مرجع سابق**، ص114.

المبحث الثالث

الدولة الحفصية(628هـ-943هـ) (1229م-1536م)

1 – أصل ونسب الحفصيين:

ينتمي الحفصيون إلى (أبي حفص عمر بن يحي الهنتاني)[1]وهو من خاصة (ابن تُومرت) وأحد مُريديه، ويرجع نسبه إلى قبيلة هنتانة وهي قبيلة بربرية عظيمة تلتحق بالمصامدة التي هي من أكبر قبائل المغرب الأقصى وكانت لأبي حفص مكانة كبيرة لدى محمد بن تومرت زعيم الموحدين،وقد تولى عدة إدارات في عهده، وظل مرموقا حتى وفاته في سنة (571هـ-1157 م) وظل أبناؤه من بعده يتداولون إمارة الأندلس والمغرب وإفريقية[2].

وفي أيام خليفة الموحدين محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف عقد على ولاية تونس لأبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص في عام (604هـ-1207م) وفي ولايته هذه استطاع أن يقضي على كثير من عوامل الاضطراب في إفريقية فهزم ابن غانية بنواحي طرابلس، وخلفه فيالولاية ابنه عبد الرحمان في عام (618هـ-1221م)، حين تولىّ أبو زكرياء يحي الحفصي(627هـ-1229م) كانت دولة الموحدين قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف،وكان بنو مرين ينازعونهم السلطة في المغرب الأقصى، فأنتهز أبو زكرياء الفرصة وأعلن استقلاله بأعمال تونس والقيروان عن دولة الموحدين ولما عاد ابن غانية لإثارة الاضطرابات طارده بجيشه فظفر به وقتله وقمع الثورة التي أشعلتها قبيلة هوارة ضده، وبذلك استقطب له الأمر في تونس فأخذ يوسع نفوذه فأستولى على الجزائر وبايعته تلمسانوسجلماسة، بل بايعته بعض بلدان المغرب[3].

ويعتبر بذلك أبو زكرياء يحي مؤسس أركان الدولة الحفصية بتونس، وله بها عدة أعمال عمرانية فهو الذي بنى جامع القصبة وصومعته الجميلة ونقش اسمه عليها، وغير ذلك من المساجد، فأهتم بالتعليم

---

(1) روباربرنشفيك: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن15م**، تع. حمادي الساحلي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م ص42.

(2) شوقي عطاء الله الجمل: **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث(ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)**، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1977،ص27 .

(3)**نفسه**: ص28.

وفتح عدة مدارس وأنشأ في قصره بالقصبة دارًا للكتب جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد من أنفس المؤلفات[1] .

وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد ابن أبي زكرياء واتخذ لقب المستنصر بالله (654هـ-1256م) وتلقّب بلقب خليفة، وأرسل له أمير مكة والحجاز البيعة بالخلافة فأحتفل بها احتفالا مشهودا وتلقب من ذلك التاريخ بلقب أمير المؤمنين .

وحين تحولت الحملة الصليبية الثانية في (1270م) حملة لويس التاسع ملك فرنسا إلى غزو تونس، بدلا من أن تتوجه إلى القسطنطينية واجه أبو عبد الله محمد ابن أبي زكرياء هذه المحنة ودارت رَحى الحرب بين الجنود التونسيين الذين نزلوا بأطلال قرطاج، واستمرت هذه الحرب نحو ستة أشهر، لكن تفشى الوباء بين الجنود الفرنسيين وفي عدد كبير منهم من بينهم الملك لويس نفسه فخلفه أخوه شارل دانجو الذي اضطر لعقد صلح مع المسلمين على أن يدفع لهم غرامة كبيرة وبذلك انتهت الحرب و أقلع الجنود الفرنسيين لبلادهم[2].

وانتابت البلاد بعد موت الخليفة المستنصر الفوضى لكثرة الخلافات على العرش، وتعرُض البلاد لهجوم المسيحيين من جهة وغارات القبائل العربية من جهة أخرى هذا بالإضافة لتعرض البلاد لغزوات بني مرين،وإن كان الحفصيون قد عادت إليهم وحدتهمواستعادواقوتهم في أوائل القرن الخامس عشر على أيدي أبي العباس و أبي فارس اللذان أعادا للدولة بنائها و نشاطها ووحدتها فاستطاعت أن تستعيد سلطانها على الجزائر و قسم من المغرب الأقصى- لكن عاد الضعف إليها حتى أن نفوذ الحفصيين لم يكن يتعدى مدينة تونس نفسها[3].

لكن مرحلة المستنصر تنتهي بعدم تعيين ولي للعهد تم إحالة الحكم إلى ابنه الواثق يحي المستنصر، الذي كان ضعيف الشخصية قليل الخبرة، ففي عهده انتقلت السياسة من الاتزان والحزم إلى التسيب بسبب تنازع واختلاف القوى داخل البلاط الحفصي لأنه اعتمد مستشارين أندلسيين سعو إلى قضاء مصالحهم الخاصة[4].

---

(1)شوقي عطاء الله الجمل: **مرجع سابق**، ص27.

(2) **الجمل**: ص28.

(3) **نفسه**: ص29.

(4) ابن الشمّاع أبو عبد الله محمد بن أحمد: **الأدلة البينة النورانية من مفاخر الدولة الحفصية**، تع. الطاهر محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1584م، ص ص67-68.

أما بالنسبة إلى فترة أبي إسحاق إبراهيم التي بدأت عام (678هـ-1279م) وهو شقيق المستنصر فكانت تتميز بانصرافه لملذاته أكثر من انشغاله بتصريف شؤون الحكم، حيث تنازل عليه لأبنائه وخصوصا لولي عهده، وخصوصا في هذه الفترة استولى الأعراب على المنطقة الغربية لتونس وأيضا على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم، وزاد في العوائد ليجد الراحة في لذاته وقِلّت المجابي في أيامه وكثر الإخراج والإنفاق [1].

بالإضافة إلى سفك دماء الأبرياء من الحاكم السابق يحي الواثق المستنصر وأبنائه وبعض كبار المسؤولين، مما جعل الناس يشعرون بالضيق والاشمئزاز، فأدى هذا إلى ظهور حركات مناوئة وثورات نجحت في إسقاط الحكم الحفصي على يد المدعي أبي عمارة [2] سنة (681هـ-1282م) وقيام هذا الأخير بالقضاء على جميع أفراد الأسرة الحفصية ماعدا عمر أبو حفص شقيق إسحاق الذي لاذ بالفرار [3] .

استقرت الدولة الحفصية في عهد هذا الأخير عمر أبي حفص نظرًا لسماته الشخصية وحنكته، إلا أنه لم يستطع السيطرة على كافة أنحاء الدولة الحفصية، وذلك بسبب شساعتها وضعف المسيرين، كانت نهايته على يد أبي الحسن المريني الذي تمكن من احتلال تونس، كن السكان ثاروا عليه وأجبروه على الهرب .

2 –انحطاط وضعف الدولة الحفصية:

تولّى أبو عبد الله محمد الحكم في الفترة الممتدة مابين (904هـ-932هـ/1494م-1526م) كان صغير العمر قليل الخبرة،ورث إرثا ثقيلا لم يكن بوسعه القيام به، ولا أن يصلح ما أفسده بعض أسلافه،ومما أورده "بن أبي الضياف" أتى والدولة على انقراض، بمزمن الأمراض من سد أبواب التغيير والاعتراض[4]، تميزت فترة حكمه بعدم الاستقرار، بسبب كثرة حروبه مع القبائل العربية،وهزائمه

---

(1) ابن قنفذ: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تع و تح. محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، دار التونسية للنشر، تونس،1968م، ص139.

(2) السراج محمد الوزير: **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تح و تع. محمد الحبيب الهيلة، ج3، ط1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1985، ص ص154-155 .

(3) أحمد بن ابي عامر: **الدولة الحفصية**، د ط، دار الكتب الشرقية، تونس،1974م، ص51 .

(4) أحمد بن أبي الضياف: **إتّحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ج3 ، د ط، الدار التونسية للنشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر- تونس،1977م، ص ص241-242.

المستمرة أمامها وكانت البلاد هدف للمغيرين، ففي عهده احتل الإسبان طرابلس و بجاية [1]، كانت العائلة الحفصية تحكم القسم الشرقي من البلاد، لكنها ضعيف غير قادرة على الدفاع عن نفسها، فآل الضعف الذي لحق بها حتى أصبح نفوذ الحفصيين لا يتعدى مدينة تونس، كما أفلتت جزيرة جربة من سيطرة كل من سلطة الحفصيين، وسيطرة البدو نتيجة لصعوب الوصول إليها على ظهور الإبل، وحتى مدن الجريد والموانئ عجزت عن الاحتفاظباستقلالها، إلا عن طريق دفع الجزية لهم، بويع الحسن الحفصي يوم وفاة أبيه 1526م ورث الإمارة وأركانها، وانحصر نفوذه على تونس و ضواحيها وكان يحتمي بحراس مسيحيين[2] .

وقد لخص بن أبي دينار الأوضاع في تلك الفترة يقول"وقد خرجتُ عن طاعة مدينة سوسة، فقام فيها صهره القُليصي، وقام عليه في القيروان الشيخ عرفه وهو من قبيلة الشّابين، وتغلب الأعراب على جل البلاد، وكانت الشوكة في أولاد سعيد لأنهم استقروا بالبلاد وهادنهم السلطان الحفصي بستين ألف دينارعلى الوطن[3].

إضافة إلى ما تقدم فإن الحسن الحفصي لم يكن يتمتع بشعبية مثل سابقيه، وإنما كان منبوذا من طرف رعيّته بسبب قتله لإخوته للانفراد بالحكم [4].

اتساع الرقعة الجغرافية لحدود الدولة الحفصيةوانعدام الإطارات الوفية والكفاءات المسيرة في البلاط الحفصي، كثرة الحروب والثورات ضد الحكم التي كانت في بجاية وقسنطينة وتقّرتو ورقلة،عمليات التصفية الكبرى لرموز الدولة.

3 – أسباب سقوط الدولة الحفصية:

–اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظر له ابن تومرت وحرصها على تبني عقائده الفاسدة، بعد أن انكشفزيف العقيدة التومرتية ومنهجه البِدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي فاصبح الولاء ضعيفا

(1) السراج محمد الوزير: **مرجع سابق**، ص ص202– 203 .

(2) جون بول وولف: **الجزائر وأوروبا (1500م/1830م)**، تع. أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص27 .

(3) ابن أبي دينار: **مرجع سابق**، ص ص183– 184 .

(4) ألفون روسو: **الحوليات التونسية**، تج. محمد عبد الكريم الوافي، منشور جامعة قاريونس، بنغازي، د ت ن، ص ص83–84.

للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدمواتبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين[1].

– الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

–استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتُضطر الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال،وأحيانا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة الدول الحضارية.

–استهدفت مدن إفريقية من قبل الإسبان النصارى والأوربيون عموما فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي والانتقام من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين .

– ظهور قوة إسلامية سُنّية أصلية متمثلة في السلطنة العثمانية والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادينالبر و ميادين البحر،وكان الدافع للدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصر الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العالمين.

–تطلع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامي سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم فلم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البرّ والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمينودحر النصارى الغاصبين.

– كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية ما آلت إليه بسبب التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى[2].

(1) علي محمد الصلابي: **دولة الموحدين**، ط1، مكتبة حسن العصرية، بيروت، لبنان، 2009م، ص338 .

(2) **الصلابي**: ص339.

الفصل الأول

الاحتلال الإسباني لتونس

المبحث الأول: دوافع احتلال الإسبان لسواحل المغرب العربي

1- الدوافع الإسبانية

2- التحرشات الإسبانية على بلاد المغرب العربي

3- بداية النزول الإسباني في الشواطئالحفصية:

4- العلاقات الإسبانية الحفصة قبل القرن (10هـ/16م)

5-العلاقات الإسبانية الحفصة بعد القرن (10هـ/16م)

المبحث الثاني: تدخل الدولة العثمانية لإنقاذ السواحل المغربية من التحرشات الإسبانية

1- ظهور خير الدين وعروج في الحوض المتوسط

2- مواجهة الأخوين للإسبان في بجاية وتحرير جيجل

3- خير الدين في تونس

4- ضم خير الدين لتونس

5- هزيمة الحسن الحفصي أمام خير الدين

المبحث الثالث: حملة شارلكان على تونس

1- دوافع الحملة

2- هجوم شارلكان على تونس

3- توقيع معاهدة بين مولاي الحسن وشارلكان

4- نتائج حملة شارلكان

المبحثالأول

دوافع احتلال الإسبان لسواحل المغرب العربي

1 –الدوافع الإسبانية :

إن الحملات الإسبانية كانت لها أسباب و دوافع وإن طغى بعضها على الآخر :

أولا : الدوافع الدينية :

بعد سقوط غرناطة دفع التطرف الديني والتعطش إلى التبشير، والعزم لتقليص حدود الإسلام انطلاقا من القرن 15 ميلادي و طيلة القرن 16 ميلادي للإسبان إلى التدخل في بلدان المغرب الإسلامي، فقد كانوا يطمحون إلى نقل الحرب إلى إفريقيا للتخلص من خطر المسلمين المغاربة والعمل على تمسيحه فملوك إسبانيا جعلوا من ذلك قضيتهم الأولى، الدّال عل ذلك أنه في مراسلاتهم المتعلقة بقضايا إفريقيا، كانوا يقحِمون العامل الديني في سياستهم، فالسياسة الخارجية لفيرديناند قد نصّت على إقامة السلم بين المسيحيين وإعلان الحرب على المسلمين،كما أن فيرديناند كان دائما يكرر أنه في خدمة الرب، وأنه يتفانى في خدمة ديانته المقدسة وأنه سيضرب أعداء الديانة الكاثوليكية.

كما وافقت الكنيسة على فرض ضريبة على المسيحيين لصالح ملوك الكاثوليك الإسبان دعما لهذه الحرب الصليبية المقدسة[1].

إضافة إلى ذلك فقد منح هذا البابا الولاية لملك إسبانيا على كامل الأرض التي يغزونها في المغرب الإسلامي،هؤلاء الذين لم ينسوا أبدا ثلاثة أمور غذت نزعتهم الدينية:

–أن جنود الفتح الإسلامي الإسباني، قدِموا منبلاد المغرب في إطار الفتوحات الإسلامية الكبرى بقيادة طارق بن زياد.

–أن الممالك المسيحية، استغلت عوامل الفتنة والانقسام،عندما انقضّت على الإمارات الإسلامية، التي كانت النّجدات تصلها فيما يشبه فتحا جديدا من بلاد المغرب الإسلامي، خاصة في عهد القوة (الموحدين).

---

(1)عبد الجليل التميمي: **الخلفية الدينية للصراع العثماني الإسباني على إيالات المغاربة ق16م**، د ط، تونس، 1978م، ص08.

– أن المسلمين الذين كانوا يضطرون إلى الفرار أمام الانتصارات الإسبانية المتتالية، وجدوا ملجأ في المغرب واستشاروا أهله للجهاد. كما أنه ورد في وصية الملكة إيزابيلا بعد موتها:

–أنه يجب مواصلة فتح إفريقية،وعدم الانقطاع عن المحاربة من أجل الدّين ضد أعداء الدّين،لكن الموت المفاجئ للملكة سنة 1504م قد أخر تنفيذ العدوان إلى وقت لاحق.

ثانيا : الدوافع السياسية:

بعد توحيد إسبانيا حَلِم ملوكها بإنشاء إمبراطورية مترامية الأطراف واسعة الأرجاء، وهذا لم يتأتى إلا بإحكام سيطرتهم على الحوض الغربي للمتوسط، ولن يتسنى لهم ذلك إلا باحتلال سواحل المغرب الإسلامي، كما أن تزعّمهم للعالم المسيحي لا يتم إلا عن طريق زيادة شعبيتهم بغزوهم لمناطق إسلامية [1] .

من بين الذين غَذّو هذه النزعة شارلكان[2] الذي كان يعتبر نفسه سيد العالم وخليفة فيليب الثاني الذي كانت له السياسة العظمى والتوسع وكان مشروعه هو الهيمنة على كل الحوض المتوسطي [3]، وكان ظهور العثمانيين في الحوض الغربي قد عرقل المخططات الإسبانية، بالإضافة إلى الاهتمامات الخارجية لإسبانيا في العالم الجديد ومشاكل أوروبا حال دون تأكيد سيطرتها بشكل دائم [4].

ثالثا : الدوافع الإقتصادية:

نرجعها لحالة إسبانيا بعد انهيار النظامين الاجتماعيوالاقتصادي للإسلاميين فيها، وإبعاد المسلمين عن البلاد حيث كانوا دعامة للاقتصاد وخلايا العمل، كما أثر طرد اليهود على المعاملات المالية والقروض

---

(1)عمار بن خروف: **العلاقات السياسية بن الجزائر والمغرب في القرن(10 هـ/16م)**، ج2، دار الأمل، الجزائر، 2006م، ص 16.

(2) **شارلكان: كارلوس هكذا كان يُعرف في المصادر التركية، واشتهر في المصادر العربية باسم شارل الخامس أو شارلكان، ملك إسبانيا وألمانيا، معاصر للسلطان سليمان القانوني. كان أعظم ملوك أوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، عيّن ملكا على إسبانيا سنة 1516م، وتولى إمبراطورا لألمانيا بالوراثة سنة 1519م، حدثته نفسه بأن يملك أوروبا كلها، فوجد أمامه خصما عنيدا هو فرانسوا الأول، وجه ضده أربع حروب أضعفه بها، كما وجه أسلحته ضدّ العثمانيين، ولما أدرك أن أطماعه بعيدة التحقق، استقال من الحكم سنة 1555م، وانقطع في كنيسته**.انظر،خير الدين بربروس:مذكرات خير الدين

(3) محمد المطوي العروسي: **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1986م، ص216.

(4) التميمي: **الولايات العربية ومصادرها ووثائقها في العهد العثماني**، ط1، الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1984م، ص74.

التي غابت بغيابهم، كُل هذا أدخل إسبانيا في مشكل اقتصادي مما أدى بها للبحث عن حلول خارج بلادها .

وفي هذه الحالة لم يبقى للإسبان من سبيل سوى الاندفاع إلى الغزو، واكتساح المغرب الإسلامي وإخضاعه لحكمهم لوضع حل لهذه الأزمة، لأن المنطقة اشتهرت بأنها مهد الخيرات ومنبع للثروات المختلفة من المحاصيل الزراعية إلى الثروة الحيوانية، وكذلك سواحل المرجان[1]،بالإضافة غلى احتكار التجارة الخارجية للمغرب الإسلامي والولوج إلى إعماق إفريقيا نحو بلاد السودان الغنية بالذهب [2].

كما أن رغبة إسبانيا في القضاء على النشاط البحري للمسلمين، كان لحماية طريق مواصلاتهم مع جزيرة صقلة التي تزوده بالحبوب [3].

ولما كانت القرصنة تُدِر أرباح كثيرة، فقد حَوّل التجار الإسبان كل من وقع في قبضتهم من سكان إفريقية الزنجية أوسكان المغرب الإسلامي، إلى عبيد سُخروا للأعمال الشاقة و عمرت بهم أمريكا.

كما أن إخضاع المغرب الإسلامي،سوف يقضي على القرصنة الإسلامي التي نشأت على ضفافه والتي كانت تقابل العدوان بالمثل، وبالتالي يصبح البحر المتوسط بحرا إسبانيًا، حيث يمكنها تشكيل وحدة اقتصادي قوامها الاتصال المباشر بين شمال المتوسط وجنوبه في الحوض الغربي منه وتحيي بذلك البحرية الرومانية[4].

رابعا: الدوافع العسكرية :

كانت السواحل الإسبانية تعاني باستمرار من هجمات البحارة المسلمين، وكان نشاط القرصنة الذي يشمل سواحل الأطلنطي إلى أودية جربة يُدِر أرباحا كثيرة على الموانئ المغربية، ففي طنجة ووهران والجزائر وبجاية وبنزرت وتونس وموانئ أخرى كانت السفن والمراكز تسلح لمهاجمة السفن المسيحية . والقرصنة لم تكن شيئا جديدا في البحر المتوسط الغربي، فمنذ قرون كان المسلمون والمسيحيون يمتهنونها.

---

(1) توفيق أحمد المدني: **حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا(1492م/1792م)**، ط1، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص ص78- 79.

(2) بن خروف: **مرجع سابق**، ص 16.

(3) شارل أندري جوليان: **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تع محمد المفالي والبشير بن سلامة، ج 3، ط 2، دار التونسية للنشر، تونس،1983م، ص448 .

(4) صالح كليل: **سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ جامعة باتنة،(2006-2007)، ص68 .

وقد وُصِفت القرصنة في بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، بأنها استراتيجيةتسمح بشن الحملات، ولذلك ارتبطت بتلك الحروب التي قامت في أوروبا، ثم اتسع نطاقها مع ظهور الدولة العثمانية على السواحل الجنوبية للمتوسط [1].

لكن القرصنة المسيحية تراجعت عبر السنين، عكس نظيرتها المسلمة التي عرفت تطورًا خصوصا بعد نزوح مسلمي الأندلس إلى المغرب الإسلامي، حيث عرفت منعرجا جديدا في الموانئ المغربية [2]، فمنذ سقوط إشبيلية في يد الإسبان سنة (783هـ/1371 م)، تمكن المغاربة بفضلهم من إتقان الملاحة والقرصنة [3].

لكن بعد سقوط غرناطة، أخذت السفن الإسبانية تطارد البحارة المسلمين، متخذة منها ذريعة للاعتداء على سواحلها، ثم جاءت ثورة البشارات (905هـ-908هـ/1499م-1502م) و تخّير المشاركون من أهل غرناطة بين التنصير والنفي،فاختارت الاغلبية الهجرة إلى أقاليم المغرب الإسلامي. وبالنسبة للمسلمين فالقرصنة جهاد بحري ضد الصليبيين، لتأخذ بعدا إنساني لإنقاذ آلاف المسلمين الفارين من إسبانيا [4].

لذلك اندفعت إسبانيا إلى العمل البحري السريع في سواحل المغرب الإسلامي،نتيجة الخوف من ردة فعل سريعة ومنظمة في حال قيام كيان سياسي موحد، يمكن له استعادة الأندلس من جديد، شرعت إسبانيا في التفكير في استراتيجية عسكرية، وهي نقل الحرب إلى أراضي المغرب الإسلامي، من خلال احتلال أهم المدن التي بدون موانئها لا يمكن الحديث عن نشاط بحري.

خامسا : الدوافع الاستراتيجية :

كان حرص الإسبان على احتلال السواحل الإفريقية، نابع من رغبتهم في القضاء على النشاط البحري للمسلمين و محاصرتهم، ولا شك أن ذلك كان يندرج ضمن الفكرة التي صرح بها

---

(1) جمال سهيل: **البعثات الدبلوماسية المغربية إلى البلاط الفرنسي خلال القرن(11 هـ/17م)**، رسالة معدّة لنيل شهادة الماجستير في تخصص التاريخ الحديث، غير منشورة، المركز الجامعي بغرداية،(2010م-2011)، ص77.

(2)إبراهيم سعيود: **الأسرى المغاربة في إيطاليا خلال العهد العثماني**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، غير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائر،(2009م-2010م)، ص116.

(3) محمد الأمين بلغيث: **فصول في التاريخ والعمران بالمغرب الإسلامي**، ط 1، منشورات أنترسيني، الجزائر، 2007م، ص 58 .

(4) نجيب دكاني: **الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن(10هـ/16م)**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، غير منشورة، جامعة الجزائر،(2001-2002م)، ص21.

الملاّح البرتغالي فاسكو ديغاما، عندما وصل إلى رأس الرجاء الصالح، فكان احتلال المواقع الاستراتيجية ضرورة ملحة تطلب تحقيقها في تلك الأثناء.

كما أن إنشاء حاميات إسبانية في الموانئ المغربية يحول دون الاتصال بين أهالي المغرب الإسلامي وبين مسلمي الأندلس، ودون حصول هؤلاء على أية مساعدة من طرف إخوانهم ، ويحرم على هؤلاء الأخيرين الجهاد البحري انطلاقا من الموانئ المغربية ،ويكفون أنفسهم بذلك عن الأضرار التي يلحقها بهم المجاهدون، كما يؤَمِنون خطوط مواصلاتهم بين إسبانيا و إيطاليا، ويتخذون القواعد الأمامية منطلقا لغزو المناطق الداخلية [1].

2– التحرشات الإسبانية على سواحل المغرب العربي :

لقد بدأ ذلك الاعتداء الإسباني البرتغالي على التراب المغربي قبل سقوط غرناطة، وتفاحش بعد سقوط. وكانت دولة البرتغال والإسبان قد قويت شوكتهما وعظمت برا وبحرا. وشرعتا في إرسال أساطيلهما البحرية إلى آفاق المعمورة كي تحتل ما يروقهما من البقاع في إفريقيا و آسيا، وذلك وفق تقسيم بابا روما للعالم بين الدولتين، ذلك التقسيم الذي شمل المغرب في جملته هذا الوقت الذي كان المغاربة واقعون في بحبوحة الفوضى والتأخر حكومة وشعبا[2].

وفي الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يستولون على ثغور المغرب الأقصى، كان الإسبان يستولون على ثغور المغربين الأوسط والأدنى واستطاعوا أن يحتلوا بها مدن هامة [3].

في أوائل القرن 15م، كانت إسبانيا لا تزال مقسمة إلى ممالك لم تتحد بعد، لكن لم تلبث أن أصبحت إسبانيا دولة أوروبية عظمى قوية في البحر والبر بعد انضمام دولة أرجونه البحرية، ودولة قشتالة بزواج فيرديناد صاحب دولة أرجونه من إيزابيلا صاحبة قشتالة، وحقّقت الملكية الإسبانية في عام 1492م نجاحا منقطع النظير لسقوط غرناطة ووصول كريستوف كولومبس[4].

---

(1) بن خروف: **مرجع سابق**، ص 16.

(2) محمد الأمين محمد:**المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتاب**، ب ط،الدار البيضاء، ص180.

(3)**نفسه**: ص182.

(4)**نفسه**: ص183.

كان الإسبان قد وضعوا أيديهم على جزر كناريا في وقت مبكر، وأدت هذه الجزر خدمة جليلة للإسبان فاستخدموها كمحطات بحرية لسفنهم، وأصبحوا من مواقعهم في هذه الجزر يمثلون خطر على الساحل المغربي المقابل، وأصبحوا يراقبون كل نشاط في الموانئ المغربية في (إيفي) و (أكادير) وغيرهما، بل إنهم في وقت متأخر ادعوا أن لهم حقوقا في بعض المناطق القريبة من(إيفي) لأن حاكم هذه الجزر الإسباني كان قد أقام محطة على الساحل المغربي في مكان اشتراه من أحد الصيادين[1].

والإسبان عَمِل بوصية ملكتهم إيزابيلا لابنتها جوانا وزوجها فيليب بأن يواصلا الزحف حتي يبين لهم شمال إفريقيا كله وتنتشر المسيحية بين سكانه، تابعوا حملاتهم الاستعمارية على الشمال الإفريقي، ومن الذين تحمسوا لفكرة الغزو الصليبي في هذا الشمال الإفريقي الكاردينال (زيميسيس) وقد شارك مشاركة فعلية في إعداد الحملات الإسبانية على الشمال الإفريقي[2].

3 – بداية النزول الإسباني في الشواطئ الحفصية:

لقد انتهزت المملكة الإسبانية المتحدة حملة على مالقة وآلش قام بها بعض المغامرين المسلمين وردوا من المرسى الكبير بالجزائر، فجهزت أسطولا بحريا كبيرا هجمت به على المرسى الكبير ووقع الاستيلاء عليه سنة(914هـ/1505م)، وكان ذلك بداية النزول الإسباني في شواطئ المغربين الأوسط والأدنى، ثم تبعته وهران التي جرت فيها مذبحة كبيرة قتل فيها أكثر من أربعة آلاف من المسلمين وأسر فيها ثمانية آلاف، وكان ذلك بإشراف الكاردينال كاسيميناس نفسه وبقيادة(بيدرونافالو) الذي إستولى بعد ذلك على بجاية في مفتتح سنة(915هـ/1510م). ويعني كل ذلك ابتداء الهجوم المباشر على السلطنة الحفصية واقتطاع أطرافها[3].

وبعد الاستيلاء على بجاية اتجهت أنظار القوات الإسبانية إلى مدينة طرابلس التي كانت تعتبر على مشارف أقصى امتداد شرقي للسلطنة الحفصية، فهناك عوامل وأسباب عِدّة جعلت الإسبان يبادرون بالتوجه إلى طرابلس قبل غيرها من بقية موانئ السلطنة الحفصية ومن اهم تلك العوامل هو ظهور الدولة العثمانية كدولة بحرية قوية في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وكانت طبيعة الصراع

---

(1) روباربرنشفيك:**مرجع سابق**، ص76.

(2) **نفسه**:ص ص77- 78.

(3) شارل أندريه جوليان: **مرجع سابق**، ص 252.

على السيادة في هذا البحر توجب الإسراع باحتلال أكثر ما يمكن من موانئه وسواحله لا سيما ما كان منها قريبا ولو نسبيا من امتداد النفوذ العثماني، واحتلال الإسبان لطرابلس يعني احتلالهم لمنافذ البحر الغربي من البحر الأبيض المتوسط الذي تعتبر المملكة الإسبانية القوة الضاربة فيه، وبذلك تمكن الحيلولة بين الأسطول العثماني وبين تمركزه في الحوض الغربي من هذا البحر، كما يعتبر احتلال بجاية غربا وطرابلس شرقا ضرب حصار واسع النطاق على السلطنة الحفصية، وكان اختيار تلك المناطق البعيدة على السلطة المركزية الحفصية ال يخلوا من حنكة سياسية وحربية بالإضافة إلى ما كانت عليه السلطة المركزية الحفصية من وهن وضعف[1].

أ–سقوط طرابلس في يد الإسبان:

كان الوضع السياسي والعسكري في مدينة طرابلس متدهور مما يساعد على النجاح في غزوها واحتلالها، فمنذ عدة عقود أصبحت طرابلس واهية الإرتباط بالسلطة المركزية الحفصية، لم يكن الغزو الإسباني أمرا مفاجئًا إذ وصلت الأخبار المنذرة بالحملة العسكرية المتوجهة إلى طرابلس قبل شهرين من وصولها مما جعل الأهالي يهجرون مدينة طرابلس إلى غريان وتاجورةومسلاتة وغيرها، ولم يبقى بالمدينة إلا الحاكم والمحاربون والعاجزون عن الفرار، جهز الإسبان لغزو طرابلسمائة وعشرون قطعة بحرية ثم انضمت اليها سفن أخرى من مالطة وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان وثلاثة آلاف من المالطيين والطليان، وأن الحملة وقع إعدادها بإشراف نائب ملك قشتالة في صقلية[2].

أما حامية طرابلس فلم تصمد أكثر من يوم امام الأسطول الإسباني بقيادة "بيدرونافارو" ففي صبيحة الثامن عشر من ربيع الثاني سنة (916هـ/جويلية1510م) بدأ النزول الفعلي للجيش الإسباني، ولم يأتي الغروب حتى سقطت مدينة طرابلس في أيدي القوات الإسبانية، وقدر عدد القتلى بخمسة آلاف وعدد الأسري بأكثر من ستة آلاف، ولم يكلف ذلك الغزو القوات الإسبانية سوى ثلاثمائة قتيل، انتصب "بيدرونافارو" حاكما على طرابلس واتخذها قاعدة لتوجيه حملاته على جزيرة جربة[3].

ب– جربة تصمد أمام الإسبان:

---

(1)محمد العروسي المطوي: **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، د ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، (1406هـ/1986م)، ص 657 .

(2)**نفسه**: ص 660.

(3)ابن أبي دينار محمد: **مصدر سابق**، ص 162.

كانت جربة منذ القديم منطقة صراع وتنافس بين حكام السواحل الشمالية والسواحل الجنوبية للحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط لا سيما مع الحكام المستولين على جنوب إيطاليا أو جزيرة صقلية، وهو الصراع الذي استمر منذ عهد الحروب التي دارت بين قرطاجة وروما خاصة، وفي العهد الإسلامي تواصل ذلك الصراع، وقد اتضح أكثر منذ أن استولى الرومان على جزيرة صقلية وافتكوها من السيادة الإسلامية، ولم يكتفي الرومان بذلك، بل تابعوا سياستهم في مطاردة المسلمين في إفريقية نفسها، لا سيما في عهد روجير الثاني إذ تمكنوا من الاستيلاء على جزيرة جربة في عهد الحسن الصنهاجي ولم يخرجوا منها ومن سواحل إفريقية إلا عندما جاء الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي في سنة 555هـ[1].

وعاد الصراع على جربة من جديد في عهد الحفصيين ابتداء من ولاية المستنصر الثاني(أبي حفص عمر)، فقد انتهزت مملكة أرغونة فترت الاضطرابات التي عمت السلطنة الحفصية وقام أسطول أرغونة وصقلية بغزو الجزيرة والاستيلاء عليها بقيادة روجيرديلورياواستقر الإسبان في الجزيرة وبنو حصن القشتيل المشهور[2].

وظلّ الإسبان معتصمين بذلك الحصن مدة نصف قرن(688-738هـ)، إلى أن تمكن القائد مخلوف بن الكماد من الاستيلاء عليه، وتحريره من أيدي النصارى الإسبان.

وفي عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز حاول "ألفونسو الخامس" ملك أرغونة وصقلية احتلال جربة من جديد، إلا أن نجدت أبي فارس عبد العزيز استطاعت إنقاذ الجزيرةمن احتلال جديد عندما أجبر ألفونسو الخامس وجنوده على مغادرة جربة بعد أيام قليلة على النزول بها، وكان ذلك سنة835هـ/1432م.

ولم يكن اتجاه "بيدرونافارو" إلى جربة إلا استمرار لتلك المحاولات السابقة من مالكي جزيرة صقلية للاستيلاء على جربة باعتبارهاإحدى الركائز التي يعتمد عليها باب الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

والواقع أن الإسبان حاولوا جهدهم الاستيلاء على جربة وقاموا بثلاث محاولات دون أن يتمكنوا من ذلك وقد قام بيدرونافاروباثنتين منها الأولى في شهر جويلية سنة 1510م والثانية في الشهر الموالي من

(1) محمد العروسي المطوي: **السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**، ص 664.

(2) **العروسي المطوي**: ص 663.

نفس السنة،أما الحملة الثالثة فكانت بعد ذلك بعشر سنوات إذْ كانت في سنة 1520م بقيادة" الدون هوغو دومانكادا" نائب ملك إسبانيا المتحدة مع صقيلة[1].

صمد أهالي الجزيرة وحدهم لمجابهة الغزوتين لاسيما الغزوة الثانية التي تعزز فيها جانب "بيدرونافارو" بنجدة كبيرة جاءت من مدينة بجاية بقيادة "الدون غارسيا" الطليطي الذي لقى حتفه في المعركة[2].

أما الحملة الثالثة التي وقعت سنة 1520م بقيادة نائب ملك إسبانيا في صقلية فإنها لم تنجح كذلك رغم كثرت جيشها إذ كان يشمل ألف فارس وأكثر من ثلاثة عشر ألفا من المشاة[3].

ج–فشل الغزوات الإسبانية الأولى:

يعُودُ فشل الغزوات الإسبانية لجزيرة جربة إلى وضعية اجتماعية هامة تسُودُ سكان الجزيرة، فبالإضافة إلى الشعور بأن السّلطان الحفصي قليل المبالات والاهتمام بالتّعرض للأساطيل الإسبانية وما تقوم به لاحتلال لمختلف مناطق السلطنة الحفصية وإلى التحفّز من خطر الاعتداء من قبل الغُزاة، فإنّ سكان الجزيرة كانوا على مذهب الإباضية كانوا يشعرون بما تشعر به كلّ أقلية من تحفّز وتكتّل، لهذا فإنّهم عندما رأوا الخطر الإسباني يستهدف السواحل الإسلامية، وايقنوا بأنّ دور الجزيرة آتٍ لا ريب فيه، بعثوا إلى أتباع مذهبهم في جبال نفوسة بليبيا مستصرخين نجدتهم طالبين منهم الدعاء بالسلامة والتأييد، وبالرغم من أنّ "الشماخي" لم يذكر في كتابه "السِّير" بعثْ النجدات من جبال نفوسة إلى جربة إلا أنّ ذلك لا يمنع احتمال ذهاب المتطوعين لنُصرة إخوانهم في المذهب، والدفاع معهم ضدَّ العدوّ المتوقع نزوله إذ يذكر محمد بن زكريا الباروني ذلك التّوقع بقوله:"... لما اتصل بالمسلمين أهل المغرب استيلاء النصارى على المرسى[4] الكبير، وذلك أحزنهم لعلمهم أنهم لا محالة يستولون على مدينو وهران، وأنهم إن فعلوا، فالباقي من بلاد المغرب في خطر عظيم، فصاروا يتوقعون ذلك وينتظرونهم، فقضى الله، فاستولوا عليها في شهر محرم فأشتدّ حزن المسلمين وقَوي البلاء عليهم..."، فلما كان شهر رمضان من السنة نفسها أخذوا مدينة بجاية، فلما اتصل أيضا خبرها بمن بقي من المسلمين زاد خوفهم، وأكثرهم خوفاً أهل جزيرة جربة لِما سبق بينهم وبين النصارى من العداوة لأنّ البحر محيط بها وأنّها لا تقوم بنفسها.

---

(1)محمد العروسي المطوي:**السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**، ص 665.

(2) محمد بوراس: **مؤنس الأحبة في أخبار جربة**، د.ط، تونس،1960م، ص 107.

(3) **نفسه:** ص 112.

(4)محمد العروسي المطوي:**السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**، ص 666.

إذن هذه هي العوامل النفسية التي يمكن اعتبارها من أهم العوامل التي جعلت المحاولات الإسبانية لاحتلال جزيرة جربة تُمنى بالفشل بالإضافة إلى بعض العوامل الطبيعية التي ساعدت على ذلك:

– ففي المحاولة الأولى يبدوا أنّ "بيدرونافالو" كان يستسهل غزو الجزيرة، وأنّ أهلها سوف لا يصمدون أمام الجيش الإسباني الذي سبقت قدومه إلى الجزيرة أخبار انتصاراته من المرسى الكبير بالجزائر إلى طرابلس الغرب بينما كان أهالي الجزيرة على يقظة تامة، وحراسة متواصلة حتى لا يفاجئهم العدوّ بالنزول.

وكانت المبادرة الأولى التي قام بها سكان الجزيرة أنهم قتلوا الرسل الثلاث الذين انزلهم القائد الإسباني للتفاوض، وكانوا يحملون أعلامًا بيضاء إشعارًا بمجيئهم للتفاوُض، ولعرض رسالة من قائد الأسطول الإسباني إلا أنّ سكان الجزيرة كانوا على استعداد للدفاع والمقاومة والقتال... فلم يتقدّم حاملو الأعلام كثيرا في أرض الجزيرة حتى تقدّم منهم الحراس، ولم يلتفتوا إلى ما كانوا يقولون، ولا يُستبعد أن تكون هذه المبادرة مفاجئة للغُزاة جعلتقائدهم يُعلن العودة إلى طرابلس لِما أصيبوا به من صدمة نفسية غير منتظرة[1].

– أما الحملة الثانية التي استعد لها الإسبان استعدادا كبيرا فقد صادف أن يوم نزولهم بالجزيرة كان يوم شديد الحرّ إلى درجة كبيرة، وأن سكان الجزيرة هيأوا خطة المكامن والخدعة ضدّ الإسبان فانسحبوا إلى داخل الجزيرة تاركين الغُزاة يتوغّلون في أرضٍ لا ماء فيها والا آبار، فقد استبد بهم العطش وأشتدّ بهم الحر حتى وصلوا بهم إلى مكان فيه آبار وجرار كثيرة فأندفع الجنود الإسبان يتخاطفون القلال والجرار ويتنازعون على شراب الماء حتّى انخرمت صفوفهم بينما كان سكان الجزيرة في مكامِنهم يتربّصون الانقضاض عليهم، وهذا ما تمّ فعلاً حسب الذي يذكره رُواة الواقعة، فقد انقض سكان الجزيرة على الغُزاة الإسبان [2].

ومهما يكن في رواية هذه الحادثة من خيال أو مبالغة فإنّ أصولها لا تخلوا من الصحة، ومن خطة جعلت الإسبان يفشلون للمرة الثانية في محاولاتهم احتلال الجزيرة، وأن يكون لذلك الفشل صداه الكبير على النصارى ولدى المسلمين على حدٍ سواء. مع ملاحظة أن الخدعة الحربية التي استعملها سكان الجزيرة لا تمنعها خطة الحرب، ولا يستبعدها العقل.

---

(1) محمد العروسي المطوي: **مرجع سابق** ،ص667.

(2)**المطوي**: ص 668.

وإذا استطاع سكان جربة الثبات والصمود بقواهم الذاتية أمام الأسطول الإسباني فإن ذلك لم يمنع الإسبان من تسجيل عدة انتصارات في مناطق أخرى من السلطنة الحفصية.

4- العلاقات الإسبانية الحفصية قبل القرن (10هـ/16م):

كانت العلاقات بين الإسبان(أراغون) والحفصيين خلال القرن (7هـ/13م،8هـ/14م،9هـ/15م) تتراوح بين السّلم والحذر والحرب، فقد تم عقد "معاهدات الصلح والتجارة والملاحة المتباينة من حيث المبدأ ومتجددة بصورة تزيد أو تنقص"[1].

ومن بين تلك المعاهدات نجد معاهدة (684هـ/1285م) التي عقدها عمر الحفصي مع بيدرو الثالث [2]، ومعاهدة (724هـ/1323م) التي عقدها السلطان أبو بكر مع خايم الثاني ،
ومعاهدة(762هـ/1360م) التي عقدها بن تافرجين (وزير السلطان الحفصي أبي إسحاق) مع ملك الأراغون ، وكذلك معاهدة (883هـ/1478م) بين السلطان الحفصي عثمان وفيرديناند الأول (ملك نابولي)[3].

لكن التدخل الأرغوني في الشؤون الحفصية على اختلاف أنواعه، كان سببه الطمع في خيراتها والحصول على امتيازات فوق أراضيها متخذة من الضريبة التي كانت تدفعها الدولة الحفصية لصقلية ذريعة في جل تدخلاتها، وقد حاول بعض ملوك الأراغون أمثال ألفونصو الثالث وبطرس الثالث التعاون مع المعارضة الحفصية[4].

1-محلية : مثل مؤازرة الدعي أبي إسحاق ضد الواثق سنة (671هـ/1272م)، وكذلك بن أبي دبوس سنة (686-687هـ/1287-1288م) ضد أبي حفص.

---

(1) برنشفيك : **مرجع سابق** ،ج 2 ،ص454.

(2) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**...، مرجع سابق، ص276.

(3) برنشفيك : **مرجع سابق** ،ج 1،ص212.

(4)**نفسه**، ص ص128-129.

2-إقليمية :متمثلة في مساندة السلطان المريني المناهض لأبي يعقوب يوسف سنة (685-686هـ/1287-1288م).

عندما اعتلى بيدرو الثالث عرش الأرغون سنة (673هـ/1274م)امتدّ نفوذ هذه المملكة إلى صقلية و جنوب إيطاليا (مملكة نابولي)، وبما أنّ هاتين الأخيرتين استولى عليهما شارل دانجو بمساعدة البابا مارتان الرابع، فإنّ صاحب الأرغون دخل في صراع مسلح مع شارل دانجو، وكانت الوضعية الجغرافية لصقلية من إفريقية هي التي جعلت بيدرو الثالث يسعى إلى وضع قدمه بإفريقية تسهيلا لغزو صقلية، وهذا ما جعله يناصر حركات الانتفاض في الدولة الحفصية سعيا في تركيز حليف له فيها، إلا أنه عندما انتصر على شارل دانجو زهد في غزو الدولة الحفصية، لكن ذلك لم يمنع من أن تصبح هاته الأخيرة عُرضة لاعتداءات متكررة يقوم بها بحارة صقلية و قراصنتها.فقد شهدت سنة (681هـ/1282م) تسيير حملة عسكرية إلى القل بتواطؤ مع أصحاب قسنطينة ضد الحفصيين بتونس، لكنها فشلت [1].

كما تم احتلال جزيرة جربة سنة (683هـ/1284م) من طرف الإسباني روجيردولوريا و بنوا بها حصن القشتيل ولما اطمأن النصارى إلى متانة هذا الحصن، أصبح ملجأ لسفنهم ومركزا لتهديد السواحل التونسية وسيطرت حامياته على سكان الجزيرة. وعندما أحسّالحفصيون بخطر هذا الحصن على دولتهم، حاولوا طرد الحامية الإفرنجية منه وهدمه، فغزاه أبو يحي زكرياء اللحياني في أيام أبي عصيدة الحفصي سنة (706هـ/1306م) وهي الحملة التي صحبه فيها التجاني صاحب الرحلة، فحاصره شهرين ثم رفع عنه الحصار حين شعر بعجزه عن التغلب عليه. وفي (738هـ/1337م) حاصر أبو بكر الثاني حصن القشتيل حتى تغلب على حاميته وطهّر جزيرة جربة من الإحتلال الأجنبي.[2]

(1) برنشفيك: **مرجع سابق**،ج2، ص455.

(2) أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني: **الرحلة**، تق. حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس،2005م،ص ص131-132.

وشهدت سنوات (685-686هـ/1286-1287م) غارات على جزر قرقنة وساحل سوسة والمهدية وكان النصارى يحرقون ويقتلون وينهبون ويقتادون الأسرى وقد كان الأهالي يردون بإعلان الجهاد ضدهم.

وفي (714هـ/1314م) فكر خايم الثاني بإعتباره الصديق الرسمي لسلطان تونس بن اللحياني، في مشروع احتلال الدولة الحفصية متعلّلاً بأمل اعتناق سلطانها للدين المسيحي. حتى أن الجند المسيحي العامل في خدمة سلطان تونس يظهر بمظهر السلك الملحق بالجيش الأرغوني. كما قدّم الأسطول الأرغوني مساعدات للحفصيين مقابل تعويضات مالية، حتى أن الاسبانيين من رعايا الأرغون هم الذين كانوا يقومون بدور المبشرين في البلاد الحفصية[1].

وفي أواخر القرن (8هـ/14م) قاموا بحملات تأديبية على القل، عنابة، دلّس، وأيضا ضد المغاربة الذين كانوا يقومون بغارات ضد السواحل الإسبانية، وفي عام (828هـ/1424م) هاجم ملك الأرغون أرخبيل قرقنة، كما هَجم ألفونسو الخامس بنفسه على جزيرة جربة سنة (836هـ/1432م)، فأجبره السلطان أبو فارس على الانسحاب وقد كانت هذه الحملة تمثل آخر هجوم مسيحي قبل القرن 16 م[2].

5- العلاقات الإسبانية الحفصيةبعد القرن (10هـ/16م)::

بعد أن قويت شوكة الإسبان بفضل الخيرات التي كانت تتدفق على بلادهم من العالم الجديد وبفضل تطور الأسلحة، أخذو يفكرون في التوسع على حساب البلاد الإسلامية، ومحو الإسلام ونشر المسيحية. فبدأ التفكير في المشروع الكبير نظريا والمتمثل في احتلال المغرب الإسلامي انطلاقا من المرسى الكبير. وفعلا طبق الإسبان مخططاتهم كما أسلفنا، فاحتلوا المرسى الكبير ووهران ليأتي دور السواحل الحفصية[3].

(1) برنشفيك: **مرجع سابق**، ج2، ص455.

(2) **نفسه**: ج1، ص ص253-262.

(3) أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ط2،ش.و.ن.إ، الجزائر، 1981م،ص ص201-202.

أ–بجاية: اعتبرت في تلك الفترة مركز إشعاع علمي وحضاري، ولكونها مصابة بداء العروشية–مثل بقية بلدان المغرب الإسلامي– فقد عاشت بسببه أجواء من الفتن العائلية على الحكم بين الأمراء الحفصيين.

لم تكن هذه الأحداث غائبة عن الإسبان، بل هي من الأسباب التي حفّزتهم على احتلالها، إضافة إلى ذلك طمعهم في خيراتها فقد كانت أغنى المدن. ومعاقبة لها على المجهودات التي تقوم بها سفنها الحربية من أعمال انتقاما للأندلسيين، وتعاطفهم أيضا مع سكان المرسى الكبير حين سارعوا لنجدته سنة (913هـ/1507م) برا وبحرا.

كان بيدرونافارو على رأس الأسطول الإسباني الذي وصل إلى بجاية في 5جانفي1510م[1]. وتم إنزال الجنود ليلا ليبدأ الهجوم مع طلوع الفجر، وقد تمكن الإسبان بفضل مدفعية السفن المصوّبة نحو تحصينات المدينة من فتح فجوة في السور المحيط بها مكّنتهم من السيطرة عليها، رغم المقاومة الشديدة لسكان المدينة والمدافعين عنها، وعلى رأسهم حاكم قسنطينة الحفصي عبد العزيز. إلاّ أنّ المعركة حُسمت لصالح الإسبان الذين قاموا بتخريب معالمها العمرانية (المسجد الأعظم)، ونهبوا خيرات المدينة وثرواتها التي كانت تنعم بها، ونُقلت كغنائم إلى إسبانيا [2].

ونظرا لخوف الإسبان من رد فعل المسلمين، لم يجدوا وسيلة أحسن من تزكية الخلافات العائلية التي ظلت بعد سقوط المدينة، فقد دخل عبد الله المخلوع مع أتباعه تحت لواء الإسبان، وغدا ولياً لهم في المناطق الداخلية [3] .كما أن الهدف من هذه المناورة هو إضعاف المقاومة بتقسيمها بين الموالين لهذا الأخير، والمساندين لعمه عبد العزيز.وهكذا تمكن الإسبان من احتلال أوّل مدينة حفصية. ثم انتقلت إسبانيا إلى احتلال عنابة في العام نفسه، والمدن المحاذية لها. عندئذ بادر السلطان الحفصي أبو

(1) كربخالمارمول: **مرجع سابق**، ج2، ص271.

(2) المدني: **مرجع سابق**، ص111.

(3) مارمول: **مصدر سابق**، ج2،ص378.

عبد الله باسترضاء الملك الإسباني، والتقرب إليه-بإعلان التبعية له- وتعهّد بدفع جزية سنوية، يضاف لها فَرَسين من جياد الخيل، وأربعة من طير الباز دليل خضوع ورضوخ [1] .

ب-طرابلس: لم يتوقف مشروع إسبانيا عند هذا الحد بل أقدم بيدرونافارو على تجسيد المشروع الإسباني الكبير، وبدأ بمحاولة التوسع في سواحل تونس، غير أنه فشل فغيّر خطته بانتهاج أسلوب الإحاطة بها بدائرة من المستعمرات، فاتجه إلى مدينة طرابلس في الغرب، وتنفيذا للأمر الذي وجهه الملك فيرديناند"... ولابد لاستقرارنا في إفريقيا من احتلالنا لوهران وبجاية وطرابلس... ولا تسمح للمغاربة بالإقامة في مدن الساحل...".

أَبحر بيدرونافارو من بجاية إلى صقلية ثم إلى مالطا ومنها إلى طرابلس، حيث قام بتجهيز أسطول قوامه مائة وعشرون قطعة بحرية،استعانة بسفن أخرى من مالطا، عليها خمسة عشر ألف جندي من الإسبان، وثلاثة آلاف من المالطيين والطليان [2]. وتمكّن من احتلالها في (30جويلية1910م) بعد مقاومة ضارية مخلّفا وراءه خمسة آلاف شهيد، وستة آلاف أسير[3].

ولعل العوامل التي دفعتهم إلى القيام بهذا، هو طهور الدولة العثمانية كدولة بحرية قوية في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وكانت طبيعة الصراع على السيادة تتوجب الإسراع بالسيطرة على أكثر ما يمكن من موانئه وسواحله. واحتلال الإسبان لطرابلس يعني احتلالهم لمنافذ البحر الأبيض المتوسط الذي تعتبر المملكة الإسبانية القوة الضاربة فيه، وبذلك تُمكن من الحيلولة بين الأسطول العثماني وبين تمركزه في الحوض الغربي من هذا البحر[4].

---

(1)المدني: **مرجع سابق**،ص114.

(2) أتوري روسي: **طرابلس تحت الإسبان وسلطان مالطة**، تع و تح. خليفة محمد التليسي، ط1، مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر، طرابلس،1969م، ص18.

(3) محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...**، **مرجع سابق**، ص ص652-655.

(4) **نفسه**: ص ص656-657.

كما يعتبر احتلال بجاية غربا و طرابلس شرقا، ضرب حصار واسع النطاق على الدولة الحفصية، ثمّ التضييق عليها شيئا فشيئا، أما اختيار المناطق البعيدة عن السلطة المركزية، لا يخلو من حنكة سياسية وحربية، نظرا لما كانت عليه السلطة المركزية الحفصية من وهن وضعف [1].

ج–جربة: من المعروف أن جزيرة جربة قد تعرضت خلال القرن (10هـ/16م) إلى عدة حملات إسبانية تهدف إلى السيطرة عليها نظرا لموقعها الجغرافي والاستراتيجي، وباعتبارها إحدى الركائز التي يُعتمد عليها في السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، ونظرا لحالة الضعف والانحطاط التي آلت إليها الدولة الحفصية في عهد السلطان أبي عبد الله محمد، اتخذ الإسبان مدينة طرابلس نقطة انطلاق للمحاولات العديدة لاحتلال جزيرة جربة، حيث كانت المحاولة الأولى في شهر ربيع الأول سنة (916هـ/1510م)، والثانية في الشهر الموالي من نفس السنة بقيادة بيدرونافارو[2] ، الذي رسى بأسطوله قرب مضيق القنطرة وحاول أن يخادع السكان، فتمركز بها وأنزل ثلاثة رجال يجيدون التحدث بالعربية و كلفهم بالتعرف على الطرق السهلة للنزول والاستقرار بالجزيرة، وأمرهم بغرس أعلام بيضاء كعلامة على نياته السلمية في الظهر، وكدليل لقواته حتى تتعرف على مكان الإنزال، غير أن سكان الجزيرة الأصليين ومهاجري الأندلس، تفطنوا للخديعة و علموا بالمجازر التي ارتكبها الإسبان في طرابلس، قبل أن يقدم إلى جزيتهم فانتزعوا الأعلام البيضاء وتصدوا لمقاومته وأرغموه على الانسحاب مهزوما إلى مدينة طرابلس [3] .

لم يتعظ لما حصل له وأعاد الكرة في 29 أوت من نفس السنة (1510م)، حيث جهز لها اثنا عشر ألف جندي، وترك ثلاثة آلاف لحراسة مدينة طرابلس بقيادة الكولونيل سامانيجووبالومبينو ، ولحقت به خمسة عشر سفينة كبيرة وثلاثة أخرى صغيرة تحت قيادة دون غارسيا دوتوليدو، ومعه فرانسيسكو ماركيز على رأس ثلاثة آلاف جندي كانوا مرابطين في بجاية [4] .

---

(1) فيرو: **مرجع سابق**، ص94.

(2) أتوري روسي: **ليبيا منذ الفتح العربي حتى1911م**، تع وتق.خليفة محمد التليسي، دار الثقافة بيروت،1974، ص149.

(3)عمر محمد الباروني: **الإسبان وفرسان القديس يُحنا في طرابلس**، مطبعة ماجي، طرابلس،1985م، ص50.

(4) روسي: **مرجع سابق**، ص178.

جرت المعركة ضد أهل الجزيرة في جو خانق، شديد الحرارة، فانتهت إلى كارثة حين أخذت القوات المسيحية تتهافت في فوضى و تشتت على إحدى الآبار[1] . كان العرب يترصدونهم و يستدرجونهم، وما كادوا يجرونهم إلى هذه الحالة حتى هاجموهم، وأقاموا لهم مذبحة في الموقع، وقد ارتفع عدد الضحايا إلى أربعة آلاف قتيل وجريح، وفي رواية اخري إلى ألفين، وكان ضمن الموتى دون غارسيا دي توليدو وابن دوق ألبا، وشخصيات أخرى مثل غارسيا ساسينتو[2] .

غادر الأسطول جربة يوم 31 أوت، فاستقبلته العواصف في الطريق ولم يصل طرابلس إلاّ يوم 19 سبتمبر[3] . وفي أكتوبر أبحر دي نافارو قصد احتلال المنستير، تاركا بطرابلس ديجو دي فيرامع ثلاثة آلاف جندي، لكن العاصفة ردّته إلى طرابلس، بعد أن تكبّد خسائر فادحة في سفنه ورجاله، وفي الشتاء أعد حملة على جزيرة قرقنة لكنها فشلت أيضا، وكان يهدف من ذلك الحصول على قاعدة بحرية لسفنه، ولعمليات قادمة يقوم بها ضد جربة والساحل [4] .

أما المحاولة الثالثة التي منيت هي الأخرى بالفشل، فكانت تحت قيادة الدون هيجو دو منكادا (نائب ملك إسبانيا في صقلية)، حيث كان عَتاده فيها ألف فارس، وألف وثلاثمائة من المشاة. كان ذلك سنة (926هـ/1520م) [5] .

بعد ذلك رضي الإسبان بنظام الاحتلال المقيد أو المحدد، وحولوا الموانئ التي فتحوها إلى مواقع حصينة تحيط بها أسوار ضخمة وتحتلها حاميات.

إذن مما تقدم نلاحظ أنه أمام محاولات التوسع التي قامت بها القوات الإسبانية ابتداء من المرسى الكبير، وهران، بجاية، وأخيرا طرابلس، كان لابد للسلطة العثمانية كقوة ضاربة في البحر الأبيض المتوسط، أن تتّخذ بعض الإجراءات والمحاولات، للحفاظ على الأراضي الإسلامية. ففي تلك المرحلة

---

(1)الوزان: **مصدر سابق**، ج2، ص95.

(2) روسي: **مرجع سابق**، ص178.

(3)روسي: **مرجع سابق** ، ص178.

(4)**نفسه**، ص178.

(5) محمد أبو راس الجربي: **مؤنس الأحبة في أخبار جربة**، تح وتع.محمد المرزوقي، ط2، تونس،1960م، ص192.

نشطت العمليات البحرية، التي كان يقوم بها ربابنة مسلمون في البحر الأبيض المتوسط لأسباب عدة معظمها لعوامل دينية، وأخرى اقتصادية [1] .

-الدينية: متمثلة في إنقاذ الأندلسيين من جحيم الاضطهاد، بعد سقوط غرناطة آخر معاقلهم بالأندلس سنة (897هـ/1492م).

-أما الاقتصادية: فتتمثل في الغنائم، التي يحصلون عليها جراء غزو السفن، والشواطئ المسيحية.

ومن بين هؤلاء كمال رايس رئيس البحارة العثمانيين النشطين في غرب المتوسط الذي كان يقوم بترتيب الغارات على الأندلس، وينقل المسلمين إلى سواحل المغرب الإسلامي، واستمرت عملية النقل تلك على فترات متقطّعة، إلى غاية ظهور الأخوين عروج وخير الدين [2] .

(1) محمد سهيل طقوش: **تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**، ط2، دار النفائس، بيروت2008م، ص217.

(2)أوغلي(أكمل الدين إسحاق): **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، تركيا،2002،ص30.

المبحث الثاني

تدخل الدولة العثمانية لإنقاذ السواحل المغربية من التحرشات الإسبانية

1 –ظهور خير الدين وعروج في الحوض المتوسط:

كانت الأعمال الفردية الممهدة للتصادم المباشر بين الاسبان والعثمانيين تتمثل خاصة في ظهور مغامرين مسلمين صمموا على مقارعة الإسبان في عرض البِحار أو في الأراضي الاسلامية التي استولوا عليها او دخلت غصبا تحت حمايتهم. وقد مرّ في السابق أن المتطوّعين للجهاد الإسلامي ضدّ حركة الاسترجاع الإسبانية، عجز ممالك المغرب الإسلامي عن نجدت المسلمين بالأندلس، كما لهم الموقف المائع الذي وقفه الأتراك العثمانيون والمماليك أمام إستغاثات الثوار المسلمين في جبال البشرات في الأندلس. وكان من أبرز أولئك المغامرين الأخوين عروج وخير الدين الذين أصبحت لهما شهرة عالمية بلغت أحيانا مستوى الأساطير[1].

ومما يُذكر عن أصل هذين الأخوين أنهما من صحراء الأناضول انتقل أبوهما إلى جزيرة مديلّلي ضمن الجيش العثماني واستقر فيها، وقد فتح هذه الجزيرة السلطان محمد الفاتح سنة(866هـ/1462م) وترك فيها حامية من جنوده واحد يسمى "يعقوب" وتزوج يعقوب إحدى الذّميات فأنجبت له أربعة

(1) محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية**...، ص 671.

أولاد: إسحاق وعروج، وخير الدين وإلياس واشتغل الإخوان عروج وخير الدين، أول أمرهما بالتجارة البحرية، وفي إحدى سفرات عروج إلى طرابلس الغرب اعترضت سفينته سفن تابعة لجزيرة روبس واستولت عليها، وأسَرت عروج مع أخيه إلياس[1]، فكان هذا الحادث محوّلا لحياة عروج[2]، وبعدما تخلّص من الأسر، حسب روايات مختلفة وغامضة أحيانا، اتجه إلى القرصنة والانتقام من سفن النصارى أخذًا بثأر ما فعلته معه سفن روبس النصرانية، ثم أخذ أمره يقوى شيئا فشيئا حتى وصل جزيرة جربة ، ومنها التحق بتونس صحبة أخيه خير الدين الذي التقى به في جزيرة جربة وسلك هو أيضا نفس المنهج الذي سلكه أخوه[3].

2- مواجهة الأخوين للإسبان في بجاية وتحرير جيجل :

أ- محاولات تحرير بجاية(918هـ/1512م) - (920هـ/1514م):

المحاولة الأولى: أعد الإسبان عشر قطع بحرية إعدادا جيدا لإلقاء القبض على خير الدين وعروج، لكن الأخوين ركبوا البحر قبل وصولهم، كانوا متوجهين إلى جنوة، لكن بسبب مخافة الرياح توجهوا إلى سواحل الجزائر، فرسو أمام قلعة تدعى "بجاية"، ولما لم تعثر السفن الإسبانية على الأخوين بسواحل جنوة، توجهت إلى بجاية، فكان الاشتباك على السواحل فيه خطوة كبيرة لذا ركب الأخوين البحر بسرعة، فضنت السفن الإسبانية أنهما فرا منها فانطلقت خلفهم وعندما ابتعدا عن الساحل بمسافة كافية أمر عروج بالعودة والاقتراب من السفن الإسبانية، فدهش الإسبان من هذه المؤامرة[4].

جرت معركة كبيرة حيث قام الأخوين بهجوم خاطف على سفينة القيادة فتمكنوا من الاستيلاء عليها مع ثلاث سفن أخرى، بينما لاذت السفن الباقية بالفرار نحو بجاية محتمية بقلعتها[5]، أعطى عروج أوامره بالهجوم على قلعة بجاية التي كانت تعُجّ بالجنود الإسبان بالإضافة إلى التحاق رفاقهم بهم الذين اندفعوا من السفن للاحتماء بأسوار القلعة، شرع عروج بمهاجمة القلعة ففقدوا ستون شهيدا وعددا كبيرا من الجرحى، أوشك الأخوين على الاستيلاء على بجاية، وأصيب عروج بقذيفة في ذراعه

---

(1)خير الدين بربروس: **مذكرات خير الدين بربروس**، تج محمد دراج، ط 1، شركة الأصالة للنشر، الجزائر العاصمة،(1431هـ/2010م)، ص 21.

(2) **نفسه**: ص 49.

(3) محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...**، **مرجع سابق**، ص 672.

(4) خير الدين بربروس: **مصدر سابق**، ص 51.

(5) بن أبي الضياف: **مصدر سابق**، ص 10.

الأيسر، أما الإسبان فقتل منهم ثلاثمائة جندي وأُسر منهم مائة وخمسون ، وعاد الأخوين إلى تونس في أربعة عشرة سفينة، وتمت معالجة عروج ببتر ذراعه[1].

المحاولة الثانية: بينما كان ينوي الأخوين الذهاب إلى مضيق سبتة وصلهم وفد من مدينة بجاية حاملا رسالة من الأهالي طالبين النجدة وجاء فيها: "إن كان ثمت مُغيثفليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال. لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الإسبان. فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم. جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه إيّانا إليكم، فتفضّلوا بتشريف بلدنا وعجّلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار"[2].

توجّه الأخوين إلى ميناء بجاية في ألفين وثلاثة وثلاثين بحارًا وعشرة سفن ومائة وخمسون مدفعا وآلاف الاسرى الذين يقومون بالجدف، كانت قلعة بجاية في أيدي الكفار الإسبان، فاشتبكوا معهم في معركة دامت ثلاث ساعات ونصف، قُتل فيها اكثر الكُفار، وعندما علم العرب بانتصار الأخوين في بجاية التحق بهم عشرون ألف رجل لمساعدتهما. تحصّن الإسبان بالقلعة واستمرت المقاومة تسعة وعشرون يوما، كان الأخوين على وشك الاستيلاء على القلعة إلا أن عدم امتلاك الأخوين للمدافع لقصف الحصون كان عائقا كبيرا، بعدها بقليل تحركت قوات إسبانية كبيرة من جزيرة مينورقة في طريقها إلى بجاية فأنسحب الأخوين إلى جيجل لترصّد القوات الإسبانية القادمة من مينورقة، وجرت معركة كبيرة أسفرت على انتصار الأخوين واستيلائهم على السفن العشرة ولم يبقى على قيد الحياة سوى ثمانية وسبعون جنديا إسبانيا أُخذوا كأسرى وقُيّدوا للعمل في الجدف وتوجه الأخوين إلى بجاية فقضوا على الجنود المتمركزين في القلعة، ففتحوا القلعة وجاء جميع الشيوخ وقُواد المناطق المجاورة لبجاية مُبايِعين للأخوين ، لم يتم تحرير بجاية بل تم فتح القلعة فقط[3].

ب– تحرير جيجل والاستقرار بها(920هـ/1514م):

كان لفُتور العلاقة بين السلطان الحفصي والأخوين الأثر الكبير في دفع هذين الأخيرين إلى التعجيل بالبحث عن موقع في إحدى المدن الساحلية المجاورة، لمواصلة نشاطهما البحري ضدّ المسيحيين، فمباشرة عد انسحابهم من بجاية قصدوا مدينة جيجل، حيث تمكنوا من الاستيلاء على قلعتها وتم ذلك بمساعدة سكان المدينة، حيث قُتل جميع أفراد الحامية[4].

---

(1)خير الدين بربروس: **مصدر سابق**، ص 53.

(2)خير الدين بربروس: **مصدر سابق**، ص67.

(3) **نفسه**: ص72.

(4) سامح ألتر: **مرجع سابق**، ص48.

وهكذا تمّ تحرير أول بلدة في المغرب الإسلامي من التواجد الأوروبي، من أجل توطيد دعائم الحكم العثماني في المغرب الأوسط، ليأتي دور المغرب الأدنى.

3–خير الدين في تونس:

يقول خير الدين في مذكرته ركبت سفينتي وأخذت بقية القطع فجبت البحر المتوسط طولا وعرضا إلى أن أتيت جزيرة جربة ، حيث التقيت أخي عروج هناك ، وبينما نحن نفكر في وجهتنا إذ بدا لنا أن نتوجه إلى تونس وقلنا:"مادام الموت هو نهاية كل حي فليكن في سبيل الله".

كنت أنا وأخي ويحي الرئيس ركب كل منا السفينة و أتينا تونس فدخلنا على السلطان وقدمنا له الهدايا ثم قلنا له "نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس ويستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة،كما ندفع لخزينة الدولة كل ما نحوزه من الغنائم "،فأجابهم سلطان تونس قائلا " إن ما تقوله معقول جدا ، فأهلا و سهلا بكم فالبلد بلدكم "[1] ، أذن لنا السلطان بالرسو في ميناء حلق الوادي فقضينا الشتاء هناك ، وعندما حل الربيع ركبنا البحر، بخمس قطع بحرية ، كانت سفينتي أسرعها فبلغنا جزيرة سردينيا وهناك استولينا على سفينة أحد القراصنة، كان فيها مائة وخمسون أسيرًا.

واستولينا على سفينتين أخريين، إحداهما كانت مشحونة بالعسل والزيتون والجبن،وأما الأخرى فقد كانت سفينة جَنوية محملة بالحديد .

وصلنا إلى تونس على أصوات المدافع مُثقلين بالغنائم، أخذ جميع الغُزاة قدر ما يريدون من الغنائموقمنا بفرز حصة السلطان وتصدقنا بمال كثير على الفقراء فنِلنا منهم الكثير من الدعاء[2] .

أمضينا الشتاء في تونس أيضا وعندما حل الربيع خرجنا للغزو وصلنا إلى ميناء نابولي بجزيرة مورا فصادفنا مركبا كبيرًا متوجها إلى إسبانيا وشرعنا في قصفهم فجرت معركة كبيرة تمكنا على إثرها من الاستيلاء عليه، وفقدنا مائة وخمسون شهيدًا من رفاقنا واستولينا على سفينة أخرى ثم رجعت إلى تونس حيث تمت معالجة أخي عروج الذي كان قد جُرح في إحدى هذه المعارك، هذا وقد كان من

(1) خير الدين بربروس: **مصدر سابق**، ص46.

(2) **بربروس**: ص ص48،47.

بين الغنائم التي حصلنا عليها سبعون أو ثمانون بَغاء وعشرون بازيًا قمنا بإهدائها جميعها إلى سلطان تونس .

بعد هذه الغزوة شاع أمرنا في كل ممالك الكفر،فاتفقوا على القضاء علينا قائلين" لقد ظهر تركيان اسمهما: عروج وخير الدين خضر، يجب أن نسحق هاتين الحيّتين قبل أن تتحولا إلى تنين، علينا أن نمحو إسميهما من على وجه الأرض، إننا إذا أتحنا لهما الفرصة سوف يسببانِ لنا متاعب كبيرة "[1].

4-ضم خير الدين لتونس:

سار خير الدين إلى القسطنطينية بأمر من الخليفة العثماني، حاملا معه مشروع إسقاط السلطان الحسن، وكان قد اصطحب معه الأمير الرشيد، هاجم في طريقه السفن الإسبانية وغنم الكثير منها، ولما وصل إلى القسطنطينية سُر به السلطان سليم، وعيّنه أميرًا للبحرية العثمانية مع احتفاظه بمنصب بايلارباي الجزائر،فتمكن خير الدين من إقناع السلطان العثماني بضرورة فتح تونس لأن هذا سيمكن الدولة العثمانية من بسط نفوذها على منطقة المغرب الإسلامي، وكان رأي السلطان بأن تونس تشكل نقطة هامة في تثبيت الأمن والاستقرار في مصر[2].

حينها شرع خير الدين في إعداد الحملة على تونس، ولهذا الغرض جند كل الإمكانيات للتعجيل في بناء أسطوله في ترسانات غاليبولي (مقر الإمبرالية في إسطنبول)، كما منحه السلطان ثمانية آلاف جندي إنكشاري وثمانمائة قطعة ذهبية وأذن له بالتحرك نحو هدفه، هاجم في طريقه إلى تونس السواحل الإيطالية، حيث فاجئ مدينة ريجيو، واستولى على قلعتي فانت أوسنيدو و جيرارنو ثم حرقهما بعد ما أسَر سكانهما، كما استولى على قلعة نابولي وأسَر من كان فيها استولى أيضا على قلاع أسبرلونجة و أسَر منهم عشرة آلاف شخص، وفي فوندي أسَر مائة وخمسين شخصًا [3].

---

(1)خير الدين بربروس: **مصدر سابق**، ص50.

(2) ألتر عزيز سامح:**مرجع سابق**، ص 109.

(3) عباد صالح: **الجزائر خلال الحكم التركي(1514م/1830م)**، ط2، دار الهومة، الجزائر،2007م، ص 62.

ولما بلغ خير الدين عنابة وجد في انتظاره إمدادات جاء بها حسن آغا، وفي 1534م وَصل خير الدين بأسطوله إلى بنزرت وعندما علم السلطان الحسن بذلك انطلق يجول في الشوارع يطلب نجدة الأهالي،لكن شعبه كان ناقمًا عليه يستجب لندائه، لأن أهل المدينة قد كرهوا دولته لأنه كان ظالما عسوفا، فعند ذلك كتب أهل المدينة كتابا إلى خير الدين يستحثونه في القدوم عليهم، ويقولون في ذلك الكتاب بارِك المدينة قبل أن يتصل عسكرها بمن يدافع من بعض بني حفص، فعندما ورد عليه كتابهم، سافر بعمارته إلى حلق الوادي، وفي اليوم الموالي دخلها دون عناء، بعدها توجّه إلى مدينة تونس حيث فُتحت له أبوابها واستقبله أهلها الذين كانوا يعتقدون أنه أحضر معه الأمير الرشيد لينَصبه على العرش، لكن خير الدين كان ينوي إلحاق تونس بدولة الخلافة العثمانية مباشرة فلما علم الأهالي بذلك اتصلوا بالسلطان الحسن وطلبوا منه العودة إلى تونس، ووعدوه بالمساعدة على طرد العثمانيين وفي الثامن عشر من نفس الشهر، وقف خير الدين على رأس أربعة آلاف وخمسمائة رجل أمام باب الجزيرة، في حين حضر الحسن برفقة أربعة آلاف فارس عربي، وفي بداية المعركة كانت الغَلبة للأهالي الذين طاردوا العثمانيين وحاصروهم في القلعة من كل جانب و في اليوم الثاني نظّم خير الدين حملة أخرى، تتكون هذه المرة من المرتزقة والأجانب، وكان عددهم ألفًا وثمانمائة حيث هاجموا المدينة وكانوا يحسنون القتال، مما دَفع التونسيين إلى الهروب والنجاة بأعناقهم، وأُرغم الحسن على الفرار، بعدما قتل من رجاله ثلاثمائة جندي بينما قتل من رجال خير الدين ثمانون، أما الأهالي فأعلنوا ولائهم لخير الدين[1] .

(1) مجهول:**غزوات عروج وخير الدين، تع نور الدين عبد القادر**، دط، المطبعة الثعالبية المكتبة الأدبية، الجزائر، 1930م ، ص92.

قام خير الدين بإرسال الرسائل إلى المناطق المجاورة، يشجعهم إلى إلقاء القبض عليه وقد وجه أيضا رسائل إلى بعض عساكره في الجزائر يأمرهم فيها بالتفاهم مع القبائل بُغية تحريضها ضد الحسن الحفصي، في حين انشغل هو بإدارة وتنظيم البلاد [1].

بعد هزيمة الحسن توجه إلى القيروان، وقد كانت أنداك تحت حكم عرفة الشابي[2]وهناك وجَد أنصارا له فالتفوا حول، حيث جمع حوالي 15 ألف متطوع وما إن سمع خير الدين بهم حتى سار إليهم في 15 ألف جندي مصطحبا معه عددًا من المدافع إلى الصحراء، فولى الأعراب منهزمين وبادروا بالطاعة والولاء [3].

سعى خير الدين إلى التحالف مع الأعراب واستعملهم في الاستيلاء على بعض المدن وأقام حاميات عثمانية بالقيروان وغيرها لاستتباب الأمن طلب من حسن آغا خليفته على الجزائر إرسال ثلاثمائة جندي انكشاري و أربعمائة فارس.

ثم بدا له توسيع ميناء مدينة تونس، فأستخدم الأرقاء من النصارى في شق قناة حلق الوادي، الذي يمتد من البحر إلى البحيرة، أما الحسن الحفصي فقد فرّ إلى قوم من أصدقائه الأعراب ومكث عندهم [4].

كانت للقوة الحربية العثمانية أسلحة متطورة يضاف لها التنظيم العسكري العالي مما جعل تفوّق خير الدين على خصمه الحسن أمرا لا نقاش فيه، حيث أن هذا الأخير لم يعد باستطاعته تجنيد الجيوش النظامية، نظرًا للضعف الذي آلت إليه الدولة، كما أن وسائل دفاعاتهم لم تكن تُساير التطور

---

(1)**نفسه**: ص ص92- 93.

(2) **عرفة الشابي(1473–1543م)**: هو الابن الثاني المؤسس للطريقة الشابية، وقد حلّ في سنة 1485م محلّ أخيه محمد، وصفته المصادر بأنه أحد أقطاب المالكية، وخليفة القيروان نظرًا لجهاده ضد المسيحيين وعملائهم. أنظر الشابي: **مرجع سابق**، ص21.

(3) مجهول: **مرجع سابق**، ص 94.

(4) كربخالمارمول: **مرجع سابق**، ج3، ص 32.

الحاصل آنذاك، فقد كانوا يحاربون على حد قول بروديل:" كرِفاق عقبة بالسيف والرمح وما إلى ذلك "[1].

وفي أعقاب ذلك أعلن خير الدين نهاية حكم الحفصيين، كما أعلن تبعية تونس للدولة العثمانية ووُجوب الطاعة له بحكم كونه ممثلا للسلطان العثماني مما قلب موازين الأمور، وزاد من حدة الصراع الحربي بين العثمانيين والإسبان الذين كانوا يدركون أهمية تونس العسكرية، وتحكّم موانئها في المواصلات البحرية من منطقة البحر المتوسط. وتوسطها بين الجزائر وطرابلس. وقربها من إيطاليا ومجاورتها لجزيرة مالطا، ومع كل ذلك فإن الأمر لم يستقر لخير الدين تماما فسرعان ما واجه العديد من المشاكل من أهالي تونس الذين تمردوا عليه نتيجة للتنظيمات التي أدخلها في بلادهم. فمن أجل حفظ النظام والأمن وزع خير الدين قواته في كافة أنحاء البلاد، وبينما كان خير الدين يوطّد سلطانه في تونس لجأ (الحسن الحفصي إلشارل الخامس)ملك إسبانيا طالبا العون ضد خير الدين والعثمانيين، وقد استجاب شارل الخامس لمساندة الحسن الحفصي وكلف قواته بوضع الخطط العسكرية للاستيلاء على تونس واستعادت التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط [2].

5- هزيمة الحسن الحفصي أمام خير الدين:

يتحدث ابن أبي الضياف عن محاولات الحسن الحفصي لاسترجاع عاصمته فيذكر أنه" لما سكنت السائرة قدِم السلطان الحسن في طوائف من الأعراب، لأن أنصاره لما عزموا على الثورة وُجّهوا له يستحثونه على الدوم فوصل بعد هدوء الفتنة، وتسلل له شيعته وأدخلوه وحده مختفيا واجتمع بعصاباته وأشياعه، ودبروا في استئصال خير الدين، ومن معه فقصدوا القصبة صباحا وبها خير الدين، فخرج لهم بعسكره فهزمهم، ووالى عليهم القتل والأسر حتى نادوا بطاعة السلطان سليمان خان، وطلبوا من خير الدين الأمان، فبذله لهم، واستقر في القصبة، والنصر له، ونجا الحسن الحفصي إلى الأعراب "برأس تمرة ولجام" ثم إن خير الدين كاتب الأعراب ورغبهم في جمع كلمة المسلمين، وحذّرهم

(1) دلندا الأرقش وآخرون: **مرجع سابق**، ص53.

(2)عبد المنعم إبراهيم الجميعي: **الدولة العثمانية والمغرب العربي**، د ط، دار الفكر العربي، القاهرة،2007م، ص58.

سوء عاقبة الفتنة في الإسلام، فأجابهم على شرط أن يُبقي في أيديهم ما أعطاه لهم بنوا حفص من الإقطاعات، فألتزم لهم بذلك وشرط عليهم أن يكونوا بالصحراء، ثم بعث إلى نائبه بالجزائر في إرسال أربعمائة فارس، ولما وصلوا إليه وزّعهم في الجهاد لما رأى من حال أهل المملكة، وشملت العافية في الظهر، وبعث خير بالدين بهدية إلى السلطان العثماني وبها الدنانير المضروبة باسمه في تونس[1].

ثمّ إن السلطان الحفصي داخل من جديد أشياخ العرب في الثورة على خير الدين فأجابوه بالثورة والعصيان، والتفّوا عليه حول القيروان، فخرج إليهم خير الدين بقوة من العُدة وكثير من العدد، والمدافع، فطاشت عقولهم وخامرهم الرّعب فولوا منهزمين، فبادروا بطاعة السلطان العثماني وطلبوا الأمان، فأمّنهم خير الدين وكتب لهم بذلك، فوفدوا عليه، وجدّد عليهم البيعة ورجعوا لأوطانهم ..." وكانت أكثر القبائل إيغالاً في الفتنة قبائل النّمامشةوالدريد.

وبانفضاض الأعراب وبالإعلان عن طاعتهم لخير الدين أيقن الحسن الحفصي بأنه لا أمل له في الانتصار على خير الدين وقواته التركية، ولهذا عَزم على ارتكاب مظهر آخر من مظاهر المأساة التي قضت على السيادة الإسلامية في الأندلس، أي مأساة استنجاد ملوك المسلمين ضدّ بعضهم البعض بملوك الإسبان.

ويعيد الحسن الحفصي صورة المأساة بما هو أشنع وأفظع فخرج من تونس مستصرخا بالإمبراطور الإسباني "شارلكان" الذي تهيّأت له ظروف مختلفة ليقوم بعمل إيجابي في إفريقية مواصلا وموسّعا لحركة الاسترجاع التي قام بها أجداده من قبل[2].

(1) محمد المطوي العروسي: **مرجع سابق**، ص 689.

(2)محمد المطوي العروسي: **مرجع سابق**، ص 690.

المبحث الثالث

حملة شارلكان على تونس

كانت ولاية شارلكان على عرش المملكة الإسبانية بعد فيرديناند ملك قشتالةوأرغونة في الوقت الذي سادت فيه أوروبا دعوة جديدة إلى القيام بحرب صليبية ضدّ الأتراك العثمانيين الذين أصبحوا يمثلون الشوكة الإسلامية، فقد دَعا البابا لاون العاشر إلى تخطيط حملة صليبية ضدّ السلطنة العثمانية، وطلب من ملوك أوروبا أن يتحدوا ويتحالفوا ضدّ الخطر العثماني الذي أصبح يزداد توغلا وتمكّنا في شبه جزيرة البلقان وأوروبا الوسطى، كما أعلن هذا البابا في الخمس من شهر مارس (1517م/932هـ) عن هدنة لمدة خمس سنوات بين ملوك أوروبا حتى يعملوا على صد الخطر العثماني، والملاحظ أن الإعلان عن تلك الهدنة جاء بعد أقل نت شهرين من استيلاء السلطان سليم الأول على مصر وإزالة سلطنة المماليك[1].

1 – دوافع الحملة:

لم يبقى شارل الخامس مكتوف الأيدي أمام انتصارات العثمانيين في المنطقة الغربية للمتوسط، ونظرا للأهمية البالغة لتونس في الاستراتيجية الاسبانية فقد كان رد الفعل سريعا جدا، فعوم على تسيير حملة إلى تونس، يدفعه لذلك عدّة أسباب، نذكر من بينها ما يلي:

(1)محمد المطوي العروسي: **مرجع سابق**، ص 693.

أ–موقع تونس: نظراً للموقع الاستراتيجي الذي تحتله تونس في منطقة الحوض الغربي في البحر الأبيض المتوسط، فإنها كانت محط أنظار شارلكان، لذلك قام هذا الأخير بإرسال جاسوس طاف بأنحائها (تونس) سنة(940هـ/1533م) هو الضابط أوشوا دارسيلا، ومما ورد في التقرير الذي كتبه أن الحفصيين أبدوا استعدادا للتعاون مع شارل الخامس، كما حذّر من امتداد النفوذ العثماني على تونس، وذكر بأن سيطرة العثمانيين على تونس تساعدهم كثيرا في السيطرة على ما تبقى من المنطقة، وبالتالي سيتوجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا ما يخشاه العالم المسيحي.

ومما أوحى به أيضا إلى شارلكان" أن التآمر على تونس اسهل من التآمر على الجزائر، وأكد أن احتلال تونس سيسهل على ملك إسبانيا احتلال افريقيا، ويجب البدء باحتلال جزيرة جربة"، كما اقترح في الحملة على تونس مشاركة ستة آلاف رجل، وعشرين أو أربعة وعشرين مركبا، مع عشرة أو إثنا عشر سفينة نقل. أُخذت هذه المذكرة مأخذ الجد، ودرست بعناية من طرف الملك وحاشيته، وبعث نسخة منها بأمر من شارل الخامس إلى الأمير أندري دوريا .

لكن انتقال تونس إلى سلطة العثمانيين، أثار قلقا جديا لدى شارلكان، لأنه أظهر خطرا حقيقا يهدد أُترانتوكالابري، والأهم أنه يهدد صقلية التي كانت تعتبر كندا القرن السادس عشر التي تطعم بقمحها نصف أوروبا، وأعتبر أيضا خطرا يهدد إسبانيا نفسها، فمسلموها (الموريسكيون) كانوا على استعداد دائم لتقديم العون إلى العثمانيين إذا ما غامروا بشن هجوم على إسبانيا الكاثوليكية [1].

فقام شارلكان بإيفاد جاسوس آخر إلى تونس سنة (941هـ/1534م) هو لويس دريزندا الذي تنكر في زي تاجر، وقد ورد في مذكرته التي بعث بها إلى الإمبراطور في(941هـ/04 نوفمبر 1534م) ما يلي:

–إذا كان احسن الحفصي في تونس، سيحاول دريزندا الإيقاع بينه وبين خير الدين، وإقناعه بطلب العون من الإمبراطور شارلكان لطرد العثمانيين من بلاده.

(1) عبد المنعم إبراهيم الجمعي: **الدولة العثمانية والمغرب العربي**، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008م، ص 53.

–أما إذا كان الحسن الحفصي خارج تونس مع العرب، وخير الدين هو السيد فب تونس فإنه يحاول الاتصال بالحسن الحفصي، ويَعده بمساندة الإمبراطور بالدخول إلى تونس.

–ينظم محاولة لقتل خير الدين، كما يُوقع بينه وبين قواده للتخلي عنه ولإثارة البلبلة وسط الجيش.

–كما اقترح بأنه سيستطيع أن يكون صديقا لخير الدين، ولكي يمكّن له ذلك يجب أن يُسوّد على إفريقيا ومناطق المغرب المجاورة لإسبانيا، وبالتالي يكون جار إسبانيا طاغية يهدد مصالحها في أي لحظة، لكنه نصح بعدم الدخول في مفاوضات مع خير الدين، لأنه كان يعرف مدى إخلاصه للخليفة العثماني.

–كما أن الراهب خوان دي إيريبس، أوصى الدكتور أرسيا مستشار الإمبراطور بالتعجيل بالحملة التي يتم التحضير لها، واقترح أن تكون في شهر مارس، كما رأى بأن نجاح الحملة سيعزل الجزائر ويسهل احتلالها، ومن ثم ضمها مع طرابلس وتونس إلى الإمبراطورية الواسعة التي لا تغيب عنها الشمس. لأن انتصار العثمانيين في تونس يعتبر من ناحية أخرى تهديدا مباشرا للبابوية والإمارات الإيطالية[1].

ب–استنجاد السلطان الحسن بشارلكان: بعد تيقّن الحسن الحفصي بأن لا أمل له في الانتصار على خير الدين، عزم على ارتكاب مظهر آخر من مظاهر المأساة التي قضت على السيادة الإسلامية في الأندلس، أي استنجاد ملوك المسلمين ضدّ بعضهم البعض بملوك الإسبان، لكنّه يعيد هذه المأساة بصورة أبشع وأفظع. فبتشجيع من قائد فرسان مالطة، اتصل الحسن بنائب ملك نابولي، وبعد نصيحة منه وجّه رسالة إلى شارل الخامس، تحمل معنى التآمر والخيانة جاء فيها:" إن رئيس الترك بربروسة ظلمني واخذ مملكة آبائي وأجدادي من يدي، وكان الحامل له على ذلك ما علمه بيني وبينك من الصداقة والموالاة، فالواجب عليك أيها الملك أنك تُعينني...على رد مملكتي...فإن استولينا عليها، تكون البلاد لك وأنا أكون كالنائب فيها"[2]. وهذا هو حال الأنظمة الكلاسيكية القديمة التي تتصارع فيما بينها وتستنجد بالمسيحيين لتثبيت اسمها ولو رمزيا، لهذا كان في رأيهم أنه يجب

(1) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**، ص 690.

(2)مجهول: **مرجع سابق**، ص 95.

القضاء على خير الدين بربروس، الذي هو خطر على هذه الأنظمة في المنطقة وعلى المشروع الإسباني أيضا.

استغل البابا فرصة استنجاد الحسن بالإمبراطور الإسباني، وبدأ يحرض شارلكان موضحًا له أن وجود العثمانيين في الجزائر يحد كثيرا من نشاطه السياسي والاقتصادي، كذلك فإن دخول الأتراك العثمانيين إلى تونس يشكل ضررًا كبيرا على العالم المسيحي عامة وإسبانيا خاصة. ومما شجع شارلكان أيضا اشتغال السلطان العثماني بأمور فتح تبريز وإيران وبغداد، كما أن ريح الوحدة الصليبية كانت تهبّ على أوروبا التي تناست حتى خلافاتها المتعلقة بالإصلاح الديني، فقد وافق الأمراء الإيطاليون والألمان على أي حملة يزعم شارلكان القيام بها ضدّ شمال إفريقيا.

والأكثر من ذلك هو أن فرنسا وعددت بلسان مونتمورنسي ممثل الملك فرنسوا الأول أنها لن تهاجم الإمبراطورية أثناء الحملة، وقد كان هذا الأخير معروفا بعدائه لشارلكان، وسبق له أن عقد معاهدة مع الدولة العثمانية[1].

لكل هذه الاعتبارات استجاب شارل الخامس بسرعة ملحوظة لنداءات المساعدة الصادرة عن السلطان الحفصي مولاي الحسن، وقرر القيام بحملة عسكرية على تونس، كان يهدف من ورائها إلى عزل العثمانيين عن المشرق وعن القسطنطينية، خاصة وأن السواحل التونسية كانت تتحكم في الطريق الرئيسي الرابط بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط.

2- هجوم شارلكان على تونس:

إن الجيش والأسطول اللّذان جهزهما شارلكان لمهاجمة تونس لم يُعرف لهما مثيل منذ زمن القديس لويس، وقرر شارلكان قيادة الجيش بنفسه، وعين أندريا دوريا و الدوق دالب كمساعدين له في تلك

(1) عائشة غطاس: **العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر(1619-1694م)**، رسالة نيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، الجزائر، 1984،ص6.

الحملة، ضم جيشه عشرين ألف من المشاة والفين من الخيالة، وعددا كبيرا من المدافع، بنقلهم أسطول مؤلف من مائتي سفينة.

تحرك الأسطول من برشلونة في الثاني من حُزيران سنة 1535م، فمر بطريقه إلى كامليلاري، ووصل قرطاجنة في الرابع عشر من حُزيران ورسى الأسطول أمام البرج المائي بالقرب من حلق الوادي[1]، ضم الجيش عددا كبيرا من الألمان والإيطاليين إضافة إلى فرسان مالطة، فنزلت أولا القوات الألمانية ثم تلتها القوات الإسبانية ومن بعدها الإيطالية إلى البر، علم خير الدين باشا بحملة شارلكانفقرر التصدي لها بما معه من قوات والبالغ عددها ثمانية آلاف جندي وعدد قليل التحق إليه من الجزائر، وما انضم إليه من الأهالي اثناء حربه مع مولاي حسن[2].

أمر شارلكان بمحاصرة القلعة، وحان ما اقتربت سفينة شارلكان أمر الغاليات الأربع المرافقة له بقصف القلعة ليل نهار، ثم أنزل جيشه إلى البر بمدافعه الثقيلة.

باشر جيش شارلكان بالهجوم مع قصف مدفعي، وعلى الرغم من القصف المستمر ظل حلق الوادي صامدا خلال شهر بكامله، وخلال هذا القصف شنّ الريّس سنان مع رجاله ثلاث هجومات خاطفة أصابوا للأعداء ستة آلاف شخص وقتلوا لهم قائدِين، لكنهم اضطروا للانسحاب نتيجة للقصف الكثيف وعدم تمكنهم استخدام مدافعهم، واستمروا في الانسحاب إلى أن دخلوا تونس في الرابع عشر من تموز[3]، عَقب انسحاب الأتراك رفع فرسان القديس يوحنا المالطيون وعلى رأسهم "كوسيأة" علم الإمبراطور على برج القلعة، كما استولوا على البرجين الموجودين بحلق الوادي هما: البرج المائي وبرج الملح، وغنموا أربعين مدفعا ثقيلا[4].

(1)ألتر عزيز سامح: **مرجع سابق**، ص115.

(2) كربخالمارمول: **مصدر سابق**، ج3، ص33.

(3) ألتر عزيز سامح: **مرجع سابق**، ص116.

(4) كربخالمارمول: **مصدر سابق**، ص34.

في التاسع والعشرون من حزيران تقدم سلطان تونس مولاي حسن مع عدد كبير من أنصاره إلى شارلكان منحنيا أمام قدميه، ومُعلنا فروض الطاعة والولاء، فأمر شارلكان بتزويد مولاي حسن بقوة تقدّر بألف وستمائة خيّال، وحمولة ثمانية آلاف جمل من الأرزاق[1].

انسحب خير الدين من حلق الوادي وقرر أولا إغلاق القلعة والمحاربة من خارجها، ومع تقدّم جيش شارلكان إلى المدينة بدأت المعركة بين الطرفين لكن خير الدين فقد أمله بالنصر فبدأ يستعد للانسحاب والهروب، فأنسحب التونسيون أولا إلى القلعة، ومن بعدها اضطر خير الدين إلى سحب مدفعيته إلى داخل القلعة[2].

وفي اليوم الثاني للقتال كلّف خير الدين جنوده بمهاجمة الأعداء وإشغالهم ريثما تصله الإمدادات من الجزائر، وفي الوقت الذي خرج فيه خير الدين من القلعة وكّل المهتدي فرنك جعفر بأمر المحافظة على المدينة ووضع بعهدته سبعة آلاف أسير أوروبي، ولكن فرنك جعفر انقلب على خير الدين، وأطلق سراح الأسرى واستولوا على المدينة وأغلقوا أبوابها[3].

عندما علم خير الدين باشا بما فعله المهتدي فرنك جعفر، قرر مع الرّياس الذين معه وهم(الريّس أيدين والريّس سنان وعدد آخر) الذهاب إلى عنابة عن طريق البر.

وفي الحادي والعشرون من تموز شنّ شارلكان هجوما مفاجئا على تونس واستولى عليها وقبل دخوله المدينة عقد مجلسا دام ثلاث ساعات، ناقش فيه مسألة الغنائم ونهب المدينة فسمح لعساكره بنهب المدينة لمدة يومين فقط، وقدرت خسائر المسلمين بأكثر من ثلاثين ألف شخص ماتوا خنقا وعشرة آلاف شخص أخذوهم كأسرى، وأطلقوا سراح ثلاثين ألف مسيحي استبدلوهم بجثة ثلاثين ألف مسلم قُتلوا على أيديهم[4]، هَدموا المساجد والمدارس والجوامع ومزقوا وأحرقوا الكتب القيمة والنادرة.

---

(1) روسو: **مرجع سابق**، ص ص88-89.

(2) كربخالمارمول: **مصدر سابق**، ص35.

(3) ألتر عزيز سامح: **مرجع سابق**، ص117.

(4) **نفسه**: ص118.

وفي اليوم الثالث دخل الإمبراطور المدينة برفقة العساكر الألمانية وقد سمح لهم بنهب المأكولات فقط ثم أصدر أمرا بإيقاف السلب والنهب وأن عقوبة المخالف الإعدام[1].

وفي الأول من آب تجمع الجيش الإسباني بحلق الوادي أمام البرج المائي وكان يرتكب الوحشية في كل خطوة يخطوها.

وفي السادس من آب حاولت القوات الإيطالية والألمانية ممارسة أعمال السلب والنهب، فأصدر شارلكان أمرًا بنقل نصف الجيش إلى حلق الوادي بنية التخفيف من أعمال السلب والنهب[2].

وفي الثامن من آب وقع مولاي الحسن معاهدة مع شارلكان، وهذه المعاهدة وضعت مولاي حسن في أدنى مراتب الذّل والإهانة.

3- توقيع معاهدة بين مولاي الحسن وشارلكان:

نصّب شارل الخامس الحسن الحفصي على كرسي الحكم وأمضى الطرفان معاهدة في(06 صفر942هـ/26 أوت1535م) وأهم ما جاء فيها:

-إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في تونس.

-السماح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية.

-تسليم جميع المدن التي وقعت سابقا بيد خير الدين(عنابة-بنزرت-المهدية-حلق الوادي)إلى الإمبراطور فورا.

-يتعهد مولاي حسن في كل سنة بتقديم 12 حصانا و12 مهرًا للإمبراطور قبل يوم من عيد(فانتان).

-دفع 12 ألف دوقة[1] سنويا، للإنفاق على الجنود المقيمين في حلق الوادي.

---

(1) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...،مرجع سابق**، ص701.

(2)المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...،مرجع سابق**، ص704.

–إذا تخلف مولاي حسن عن أي شرط، سيدفع خمسين ألف دوقة وفي المرة الثانية مائة الأف دوقة، وفي المرة الثالثة تؤخذ البلاد منه[2].

هذه أهم شروط المعاهدة التي أبرمها الحسن الحفصي مع الإمبراطور شارلكان[3].

4– نتائج حملة شارلكان:

– سقوط حلق الوادي:

رغم محاولة شارلكان ضرب حصار على دفاعات حلق الوادي، إلا أن القوات المدافعة تمكنت خلال هجمات تمت في الليل والنهار من تحقيق نجاحات، كان من بينها الهجوم الذي نظمه سنان رايس في الرابع من جويلية بمعية ثلاثة آلاف جندي، انطلاقا من حلق الوادي على المعسكرات الإسبانية[4].

وفي احدى المواجهات تمكنت قوات خير الدين من قتل ستة آلاف جندي إسباني، كما تمكنت من استرجاع الموقع الذي كانوا يتسترون فيه[5].

تابع العثمانيون هجماتهم ليلا ونهارا، وفتحوا خنادق العدو مرات عديدة لكنهم كانوا يتراجعون تحت ضغط نيران السفن الإسبانية.

وفي(942هـ/14جويلية1535م)، وبعد هجوم عنيف تمكن الإسبان من الاستيلاء على حلق الوادي، فقررت الحامية العثمانية بقيادة سنان باشا التراجع نحو تونس، بعد أن تكبدت خسائر فادحة،

---

(1) **الدوقة:** وهي عملة فلورنسية (نسبة إلى مدينة فلورنسا) وهي تعادل درهمين عثمانيين وقد استخدمتها الدولة العثمانية كعملة ذهبية فقط، كانت تستعمل في البلدان المطلة على البحر المتوسط في عصر خير الدين بربروس. أنظرخير الدين بربروس: مصدر سابق، ص121 .

(2) ألتر عزيز سامح: **مرجع سابق**، ص ص119-120.

(3) محمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...**، **مرجع سابق**،ص703.

(4) خير الدين بربروس: **مصدر سابق**، ص173.

(5) المجهول: **غزوات...**،**مصدر سابق**، ص96.

فلاحقتها القوات الإسبانية عبر ممرات خطرة حول البحيرة، وتمكنوا من أخذ اثنين وأربعين مركبا غارقا في أوحال القناة، أما شارل الخامس فقد استولى على سبعة وثمانون سفينة عثمانية، وقرابة ثلاثمائة مدفع، كما وجد مائة وأربعون مدفعا في أبراج حلق الوادي[1].

– سيطرة الأسرى المسيحيين على تونس:

بعد سقوط قلعة حلق الوادي، بقي شارل الخامس مترددا أياما إلى أن اقنعه البعض من القادة بضرورة السير إلى تونس ومواصلة الحرب، ففي 17جويلية تحرك الجيش إلى امتداد الشاطئ الأيمن

للجزيرة، وكان في طريقه إليها يحرق القرى ويقطع أشجار الزيتون[2].

وعندما علم خير الدين بذلك خرج في ستة آلاف من رجاله، لأنّ البدو الذين انضموا إليه قاموا بخيانته بعد سماعهم بسقوط حلق الوادي، وانسحاب سنان رايس بمن بقي معه من البحارة، وانضمّ إلى خير الدين الذي عسكر في خربة الكلخ على بعد ستة كيلومترات من تونس، ووصلته مساعدات عسكرية من الجزائر[3].

دارت معركة عنيفة بين خير الدين والإسبان، وقاتل المسلمون أعدائهم بكل شجاعة، إلا أن الأسرى المسيحيين نجحوا في تهشيم أبواب سجونهم وتمكنوا من السيطرة على القلعة، وكان عددهم إثنا عشر ألف أسير، فقاموا بتوجيه مدافع معقل القصبة نحو جيش المسلمين، كما أوصدوا أبواب المدينة وقاموا بحراستها ليمنعوا خير الدين وجيشه من التّحصن بها،وكان ذلك إثر خيانة فرنك جعفر الذي أوكل له

(1) صالح إكليل: **مرجع سابق**، ص54.

(2)روسو: **مرجع سابق**، ص89.

(3) ابن أبي ضياف: **مصدر سابق**، ج2، ص13.

خير الدين مراقبة الأسرى[1]، كان خير الدين قد شعر بالخطر قبل مغادرته تونس، وقرر إعدام الأسرى، لكن إسراع شارلكان في شنّ هجومه لم يترك لخير الدين وقتا لتنفيذ قراره[2].

رَغم الوضعية الحرجة التي أضحى فيها خير الدين، إلا أنه دافع عن تونس ستة أيام بعد سقوط حلق الوادي، وكبّد العدو خسائر كبيرة بقواته، ففي أول اشتباك سقط ألفان وخمسمائة شهيد[3].

الفصل الثاني

تونس بين القوة الإسبانية والعثمانية

المبحث الأول: النفوذ الإسباني الحفصي

1- المدن المحتلة من طرف الإسبان(المهدية، بنزرت، عنابة) ومحاولة احتلال القيروان ومدن أخرى.

2-نهاية الحسن الحفصي على يد ابنه أحمد

3-علاقة أحمد الحفصي بالإسبان والعثمانيين.

4-أحمد الحفصي بين الإسبان والأتراك

المبحث الثاني: تحرير المدن المحتلة من الاحتلال الإسباني (دور درغوث باشا وعلي باشا)

(1) ألتر سامح: **مرجع سابق**، ص117.

(2) خير الدين: **مصدر سابق**، ص175.

(3) **نفسه**: ص176.

1–درغوث باشا وتحريره للمدن المحتلة

2–علي باشا واسترجاع تونس 1596م

3–معركة ليبانت ونتائجها

4– التحالف الحفصي الإسباني (عزل أحمد الحفصي وتولية أخيه الحكم)

المبحث الثالث: الضم النهائي لتونس للدولة العثمانية

1–حملة الدون خوان على تونس

2–سنان باشا والقضاء على الوجود الإسباني الحفصي

3–تونس إيّالة عثمانية

المبحث الأول

النفوذ الإسباني الحفصي

1– المدن المحتلة من طرف الإسبان(المهدية، بنزرت، عنابة) ومحاولة احتلال القيروان ومدن أخرى:

إن سيطرة شارلكان على تونس عززت مكانته في البحر المتوسط، فحاول أن يجعل المدن الأخرى في إقليم تونس خاضعة للسلطان الحسن الحفصي.

– محاولة السيطرة على المهدية:

توجّه شارلكان مع بقية أسطوله إلى مدينة المهدية التي تنازل له عنها السلطان الحفصي ضمن المعاهدة التي وقعها سنة(942هـ/1535م)، وبسبب سوء الأحوال الجوية تم تأجيل تلك الحملة ولذلك

توجّه إلى صقلية، حيث نزل في ميناء طرباي، وأثناء إقامته في هذا الميناء انتهز الفرصة في التدبير للهجوم على مدينة المهدية وبسبب الرياح العاتية فشل مشروعه في تلك السنة[1].

وفي سنة(946هـ/1539م) استطاع الإسبان إنزال حامية عسكرية بها وذلك بطلب من سلطان تونس الحسن الحفصي للقضاء على ثورة داخلية ضدّه، فثار السكان لأنهم لم يرضوا بهذا الاحتلال فاضطرت الحامية إلى الانسحاب.

– الاحتلال الإسباني لمدينة بنزرت(942هـ/1535م):

أمر شارلكان قائده أندري دوريا بمهاجمتهم من جهة البحر، أما السلطان الحسن الحفصي يهاجمهم من جهة البر، وتم أخذ المدينة عنوة، لأن الأهالي والعثمانيين المتواجدين في الحصن قد استسلموا من أول وهلة. استغل الحسن الحفصي الوضع فأنزل عقابه بالسكان الذين ثاروا ضدّه ثلاث مرات[2].

وفي الرسالة التي بعث بها الدون بارناردينو دي ماندوزا إلى شارلكان في(942هـ/20 ديسمبر 1535م) يخبره فيها: "بأن السلطان الحفصي قد قام بهدم حصون بنزرت، وأن هذا التصرف قد أعجبه وكان يتمنى أن يتم هذا مع باقي المواقع الحرية لتونس عندها لن يجد القراصنة ملجئ"، وبما أن برناردينو دي ماندوزا عيّن ممثلا لشارلكان في تونس، وقائدا عاما في حلق الوادي، كان دوره منصبًا على بناء القلاع الإسبانية وتدمير الأسوار التي كانت تحمي الأحياء المسلمة في تلك المدن التي أضحت إسبانية[3].

– احتلال مدينة عنابة(942هـ/1535م):

(1) روسو: **مرجع سابق**، ص91.

(2) مارمول: **مصدر سابق**، ج3، ص11.

(3) إيفانوف: **مرجع سابق**، ص237.

إن التقرير الذي كان موجّه إلى الإمبراطور شارلكان، جعله يحرص على جعلها من المناطق التي يجلو عنها السلطان الحسن الحفصي لصالحه تحت المعاهدة المبرمة بين الطرفين وذلك لخنق الجزائر اقتصاديا[1].

بعد مغادرة خير الدين من عنابة حيث كلّف شارلكان الماركيز دي موندیجار باحتلال عنابة (942هـ/16 أوت1535م) وهو في طريقه إلى إسبانية، وفي 25 من نفس الشهر وصلها بأسطوله المتكوّن من ثلاثة آلاف رجل، تم إنزالهم بعيدا عن القلعة، وشرعت قواته في الاستيلاء عليها، وكانت المدينة خالية حيث غادرها سكانها مع خير الدين نحو الجزائر، وبعد التّمكن منها عاثوا في تلك الجهات فساد، ويغنمون منها عددا من المواشي والعبيد وغير ذلك.

بالرغم من ذلك لم يستطع الإسبان سوى احتلال مدينة عنابة، لكون الجهات المطلة عليها كانت محاطة بأهالي المدينة صحبة الحامية العثمانية، وقد تمكن هؤلاء الأخيرين من نصب الكمائن للإسبان حتى على أبواب المدينة [2] .

– محاولة احتلال القيروان:

قام الحسن الحفصي بمحاولات عديدة لتوسيع نفوذه وتمديد رقعته إذ كان نفوذه لا يكاد يتجاوز تونس وجهاتها بينما كانت أطراف البلاد مستقلة عنه يتولاها الأعراب أو الأتراك أو الإسبان، وكان الحسن الحفصي يشعر بأنّ أشد أولائك المستبدّين بالأطراف خطورة هو الشيخ عرفة الشابي[3] بالقيروان الذي إمتدّ نفوذه إلى المناطق الشاسعة، ولهذا بادر الحسن الحفصي بتجهيز حملة عسكرية ضدّ الشابي، إلا أن الحملة فشلت وصُدّت على أعقابها قبل أن تصل القيروان بإثني عشرة ميلا وبعد أشهر قليلة أعاد الحسن حملة ثانية ضدّ آل الشابي متحالفا مع أحد زعماء أولاد أبي الليل يسمى"عبد

(1) ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية(1800– 1830م)**، د ط، الجزائر، 1979م، ص ص204–206.

(2) مارمول: **مصدر سابق**، ج3، ص09.

(3)**نفسه**: ص10

الملك" ولكن بدون جدوى كذلك، ثم تتابعت حملاته بمساعدة الإسبان إلى أن يئِس من تغلّبه بمساعدة قوات الاحتلال الإسبانية ولذلك عزم على الاتجاه من جديد إلى السلطة الإسبانية مستنجدًا بها ضدّ عصيان القيروان حتى يؤدبها كما أدّب تونس من قبل، وكان هذا في الوقت الذي اندلعت فيه الحرب من جديد بين فرنسا وإسبانيا، وبما أنّ هنالك تقاربا بين فرانسو الأول والسلطان العثماني، وأنّ خير الدين سيكون بجانب الأسطول الفرنسي ضدّ شارلكان فإنّ الحسن الحفصي انتهز الفرصة وحرص على الذهاب إلى مقابلة شارلكان وطلب النجدة منه حتى يُشغل خير الدين عن مساعدته للأساطيل الفرنسية.

ولكن قبل وُصول الحسن الحفصي إلى شارلكان فاجأته أحداث داخلية في تونس غيّرت من اتجاهه، فقد وصلته الأخبار تُعلمه أنّ ابنه أحمد(أمير عنابة) جاء بعده إلى تونس ونادى بنفسه سلطانا عِوض والده، فما كان من الحسن الحفصي إلا المبادرة بالعودة صحبة جيش من المرتزقة[1].

2-نهاية الحسن الحفصي على يد ابنه أحمد:

عندما سمع أحمد الحفصي بمغادرة والده وتوجّهه إلى شارلكان، توجّه أحمد إلى تونس ونادى بنفسه سلطانا عِوض والده، ذلك أنّ أحمد ابن الحسن الحفصي لما رأى فعل أبيه في المرة الأولى، وما عزم عليه من جديد خاف من اتلاف الحضرة وأقبل إلى تونس خفية وتكلّم مع جماعة من أهل أريانة استشارهم في خلع أبيه، فأجابوه على كلمة واحدة. فتوجّه إلى القصبة ومعه الأعيان من الحاضرة، ولما وصل إلى باب ينتجني جُبن عن الإقدام فوكزه الشيخ عمر الجبالي بين كتفيه وقال له:" تقّم فآذى له فكره." ودخل القصبة فلم يتعرّض له أحد، وصل الخبر إلى الناس فهرعوا إله وبايعوه، فقال لهم:" إنما فعلت هذا لأنّي أنفت لما حلّ بكم في السابق وخفت عليكم مما يأتي". فشكروه ودعوا له، وسار في الناس سيرة حسنة وازدادوا تعلُقا به[2].

(1)المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**، ص ص705-706.

(2) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص166.

ولما تمّ لأحمد ابن الحسن الحفصي الأمر على تلك الصورة بعثت الحامية الإسبانية إلى والده تُعلمه بالخبر وتستحثه على القدوم قبل استفحال الأمر، فأقلع الحسن الحفصي من نابلي بجيش من المرتزقة بقيادة القرصان الإسباني لوفريدو، ولما وصل الحسن الحفصي مع النصارى هبطوا إلى البر فسمع السلطان أحمد وأهل البلد، ووقعت هرجة عظيمة، فخاف أهل المدينة أن يُصابوا مثل المرة الأولى بنية الجهاد والمدافعة عن أموالهم وأولادهم .

ونادى منادي السلطان أحمد:" من أتى بأسير او رأس قتيل فله مائة دينار" وجلس أحمد الحفصي عند باب القصبة، وجعل الدنانير في قراطيس من الكاغذ، وحرّض الناس على الجهاد، فخرجوا لقتال الحسن والنصارى، والتقى الطرفان في خربة الكلخ(شرقي تونس) إلى سانية العناب[1].

ويذكر ابن أبي دينار أن الجيشين ظلا متقابلين دون أن يبادر أحدهما بالهجوم، ثم يُضفي على الموقف مسحة من "التصوّف والبركة" مما كان يسود مجتمع تلك العصور من التخلف الذهني والتواكل فيقول: " وكان يومئذ الشيخ سيدي علي المحجوب ممن حضر الواقعة فوقف عند كُدية وأخذ قبضة من تراب ومسكها في يده، وقرأ حزب الشيخ الشاذلي، وعند تمام قراءته رمى بها نحو الكفرة وقال : شاهت الوجوه... ثلاثا واصطف الفريقان ولم يكن بينهما قتال والناس ينظر بعظهم بعضا"[2].

وبينما كان الجيشين المتقابلين المحجمين عن المبادرة بالهجوم فوجئوا بظهور جماعة من المتطوعين المسلمين يخرجون من مدينة تونس يحملون علما أخضر ويقودهم من سماه ابن أبي دينار " المعلم عمر"، وكان عدد هؤلاء المتطوّعين نحو مائتي رجل واندفعوا يهاجمون النصارى وحليفهم الحسن الحفصي، وأشتدّ القتال قرابة الساعة فأنتصر المسلمون، وتذكر بعض المصادر أن العشرين ألف النصراني الذين كانوا مع الحسن الحفصي لم ينجوا منهم إلا خمسمائة فرّوا ملتجئين إلى قلعة حلق الوادي الإسبانية وأن قائدهم "لوفيردو" هلك غريقا في البحيرة[3].

---

(1)ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص167.

(2) المطوي العروسي: **مرجع سابق**، ص707.

(3) **نفسه**: ص708.

أما الحسن الحفصي فكانت مأساته أشد فيقول هنا ابن أبي دينار" وفرّ الحسن إلى شكلي ودخل في الماء راجلا بلا فرس، وهابته الناس لمقامه السابق فيهم" إلى أن دخل المدعو "أبو الهول" فأخرجه من البحير وهو ملوّث بالغرم فكساه برنسا وجيء به إلى ولده أحمد فقام هذا الأخير بسجنه واستغاث الناس بالسلطان أحمد وقالوا: "لا يكون ملكان في مدينة"، وكثر هرج الناس فأستشار أحمد أصحابه بما يفعل بوالده(سجنه أو قتله)،فأشار عليه ابن أبي حمزة بسمل عينيه فسُملت عيناه[1]،أذن له ابنه السلطان أحمد بزيارة مقام الشيخ قاسم الجليزي ومن هناك تمكن من الهرب بمساعدة صهره القليعي وهرّبه إلى القيروان، وهناك أقام الحسن الحفصي طريدا ضريرا بزاوية الشيخ أبي علي سالم القديدي إلى أن وافته المنية هناك ودفن بالقيروان[2].

أ – علاقة أحمد الحفصي بالإسبان والعثمانيين:

كانت البلاد إبان حكم أحمد الحفصي مقسمة بين الشابيين والإسبان والأتراك، ففي بداية الأمر حاول أحمد الحفصي أن يصادق الأتراك الموجودين في طرابلس والجزائر، كما حاول أن يُهاجم الإسبان في قلعة حلق الوادي. أما عن علاقته بالعثمانيين فكان هو أول من راسل ملوك الدولة العثمانية...بعث أولا محمد القُصيبي ثم محمد المريشي إلى الجزائر وبعث بأبي الطيب الخضار مرة إلى الجزائر ومرة إلى قسنطينة، كما ذهب إلى مدينة طرابلس.

أما عن موقف أحمد الحفصي في حامية حلق الوادي الإسبانية فيقول ابن أبي دينار: "وفي أهل حلق الوادي له عدة وقائع منها أنه عزم على السفر إلى إفريقية على عادته. وسار كأنه غازٍ ومعه ألف فارس إلى أن بلغ ماطر، ورجع من هناك على غير طريقته الأولى غلى أن أتى على ناحية المعلقة فكمن هناك وبعث خيل الدالة وأمرهم بالغارة على حلق الوادي، والإسبان مطمئنون من جانبهم لأن جواسيسهم أخبروهم بأن السلطان خرج من البلد، فلما أنذروا بخيول الدالة خرجوا من البرج في طلب الخيل وانهزموا أمامهم، فاتبعوهم إلى أن وصلوا قرب الحضرة، فلمّا علم أحمد الحفصي ببعدهم جال

(1) ابن ابي دينار: **مصدر سابق**، ص167.

(2) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...**، **مرجع سابق**، ص711.

نحو البرج وداهم على حين غفلة، ووقف على بابه، وامتنع هو ومن معه على الدخول، وكان بمقدوره تحرير حصن حلق الوادي إلا أنه أبى[1].

إن تردد أحمد الحفصي في اقتحام القلعة الإسبانية بحلق الوادي رغم فتح أبواب القلعة وخروج الكثير من حاميتها، دليل على ضعفه وعجزه أمام الإسبان المحتلين لبلده، وكان اعتماد أحمد الحفصي على العلوج النصارى من أبرز العوامل المفسدة للجو بينه وبين رعاياه والمبعدة للأسر التونسية العريقة في الإدارة عن البلاط الحفصي مثل عائلة بني هلال، وكان من أبرز أولئك العلوج العلج(خوان بن خاكمو) الذي كان من أهل الحل والعقد مع إسبان حلق الوادي، واكن يترأس ثلاثمائة رجل من أولئك العلوج في حاشية البلاط الحفصي، وهو الذي تولى الفتك بعائلة بني هلال، هذا بالإضافة إلى المهجرسين الذين كانوا ضد السُلطة الشرعية الحفصية، وفي نفس الوقت كانوا يتعاونون مع الحامية الإسبانية[2].

ب – أحمد الحفصي بين الإسبان والعثمانيين:

حاول أحمد الحفصي في بداية أمره أن تكون له علاقة تعاون مع الحاكم التركي على طرابلس الغرب درغوث باشا وقد أجبرتهما على ذلك مصالح مشتركة، ذلك أن أحمد الحفصي كان يأمل من تمتين علاقته مع درغوث باشا أن يَدرئ عنه خطر الشابيين المستولين على القيروان والطامعين في ضم تونس إليهم، فكان يخشاهم أكثر منن الإسبان الذين أبرتهم ظروف الحرب في أوروبا أن يقتنعوا ولو مؤقتا بالاستقرار في بعض الموانئ الساحلية دون أن يتوغّلوا في البلاد، كما أنّ درغوث باشا دفعه حرصه على تنقية مدخل الحوض الغربي للبحر الأبيض من فرسان القديس يوحنا والإسبان ، دفعه ذلك إلى التقارب مع أحمد الحفصي وهو بلا شك مؤمن بأن هذا السلطان لا خطر منه وأنه من الميسور التغلب عليه في الظروف المناسبة، ويكتفي ابن أبي دينار في حديثه عن العلاقات بين أحمد

(1) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص171.

(2)المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**،ص716.

الحفصي ودرغوث باشا بقوله: "وكانت بينه(أحمد الحفصي) وبين درغوث باشا صحبة أكيدة"[1]، بينما تذكر بعض المصادر الأخرى أنّ درغوث باشا زار تونس سنة 1548م إثر عودته من إحدى غزواته لجنوب إيطاليا، وأنه أهدى لأحمد الحفصي إحدى الصّبايا الجميلات لتصبح ضمن حريم قصره، وأنّ أحمد الحفصي قدم له أيضا هدية نفيسة. إلا أن هذه العلاقات لم تكن واضحة كثيرا ولا محددة المعالم في الكتب التاريخية المختلفة لتداخل الأحداث وكثرتها، هذا بالإضافة إلى أن حقيقة الصراع على السيادة إنما كانت تتمثل في الصراع العثماني الإسباني. أما عن أحمد الحفصي فأراد أن يضمن بقائه فوق كرسي السلطنة مهما كانت القوى التي تسنده ويتكئ عليها.

المبحث الثاني

تحرير المدن من الاحتلال الإسباني

1- درغوث باشا وتحريره للمدن المحتلة:

أ- التعريف بدرغوث باشا: وُلد درغوث بن علي بجزيرة رودس حوالي سنة 1485م، نشأ وتربى على الحياة الإسلامية، وشبّ على حياة الفروسية والمغامرة في البحار مع الأساطيل البحرية العثمانية، وفي سنة 1533م، ذُكر بين البحارة العثمانيين الذين كانوا يهاجمون سفن البندقية ببحر إيجا، عُيّن حاكما على طرابلس سنة 1556م.

وفاته: استشهد درغوث أثناء حصار مالطا عن عمر يناهز ثمانين سنة، ونُقل ودُفن في طرابلس الغرب[2].

ب – استيلاء درغوث باشا على سوسة والمنستير وطرده أندريا دوريا منها:

(1) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص170.

(2) ثريا فاروقي: **الدولة العثمانية والعالم المحيط بها**، تع حاتم الطحاوي ومراجعة عمر الأيوبي، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2008م، ص ص96-97.

في عام 1549م قضى أندريا دوريا[1] فصل الصيف وهو يبحث عن درغوث الذي كان يلحق أضرارا عظيمة بالنصارى بواسطة أسطول مكون من 24 سفينة قرصونية، ولكن هذا القرصان الشهير كان يتحرّك بذكاء جعل إدراكه صعب المنال[2]، إنّ أندريا دوريا كان يجوب بأسطوله المتكوّن من ثلاثة وثلاثين سفينة حربية سريعة مجموع سواحل تونس حيث أجبر سوسة والمنستير وإفريقية وصفاقس وحصن القليبية على الدخول في طاعة الملك وأسلم زمامها لابنه ثم عاد لقضاء فصل الشتاء في بلاد النصرانية، وعند بداية الربيع خرج لمطاردة درغوث ومعه السفن الحربية السريعة التي في مُلك البابا ودوق فلورانسا وبعض فرق الجنود الإسبانيين من جيوش نابولي ولمبارديا وصقلية، وكان درغوث قد استعاد أثناء فصل الشتاء كلّ من سوسة والمنستير وصفاقس يعد أن أغرى سكانها بطرد ملك تونس وأخذ مدينة إفريقية وترك فيها أحد أقاربه(ابن أخيه أو ابن أخته) ومعه أربعمائة من الجنود وخرج هو للقيام بأعمال القرصنة في البحر، ولما انطلق أندريا دوريا من صقلية مع جميع السفن الحربية نزل برأس عطارد ونهب حصن القليبية[3].

ثم انطلق من هنالك قاصدا مدينة إفريقية، ومرذ بالقرب منها على متن سفينته القيادية بقصد التعرّف عليها واستكشافها وعندئذ أطلق عليه الأتراك طلقة المدفعية فقتلوا خمسة من رجاله كانوا في مؤخرة السفينة، وعلى إثر ذلك ابتعد حتى صار أبعد من مرمى المدافع وعقد اجتماعا مع قواد السّفن فقرر في ذلك الاجتماع أن بتم الاستيلاء على تلك المدينة قبل أن يزداد فيها درغوث تحصّنا، مع الحرص على أن لا يؤدي ذلك إلى قطع العلاقات مع السلطان الأعظم، لأنّ عملهم إنما هو موّجه ضد قرصان لا يحصد السلام ولا يحترم الهدنة ويحدث فسادا كبيرا، ولما كانت هذه الحملة تتطلب عددا

---

(1)**أندريا دوريا: ولد أندريا دوريا سنة 1498م، وهو من أولاد عائلة تعود بأصلها إلى جنوة، وفي شبابه عمل حارسا لدى البابا، تعلّم فنّ الحروب والمغامرات البحرية، وعندما بلغ سن الأربعين التحق بالبحرية فأظهر براعة فائقة، فأصبح قائدا للأسطول الجنوي سنة 1513م، والتحق بالأسطول الفرنسين وبفضل مهاراته البحرية وخبرته سجّل الأسطول الفرنسي عدة انتصارات على الأسطول الإسباني، ولكي تتخلص جنوة من الظلم والاستبداد عاد إليها، فكلّفه الملك بحكمها، لكنّه رفض وقبل منه فقط لعب أميرال البحر، وقد مارس أندريا دوريا القرصنة على حسابه الشخصي، وجمع أموالا كثيرة من حراء ممارسته للقرصنة، يعتبر أندريا دوريا أول بحار في العالم المسيحي. أنظر ألتر عزيز سامح، مرجع سابق، ص94.**

(2) كربخالمارمول: **مصدر سابق**، ص68.

(3) كربخالمارمول: **مصدر سابق**، ص68.

أكبر من الجنود وكان القيام بها يستدعي إعلام نائب الملك في نابولي وصقلية، فقد تقرر ان يتم التوجّه إلى حلق الوادي وأن يقع الاستيلاء أثناء المرور على مدينة المنستير، وكان درغوث قد ترك بها أتراكا لحمايتها .

ولما كان الوصول إليها لقي الجنود صعوبة في النزول لأن الأتراك والأهالي وعربا معيّنين لهم قاوموا ذلك النزول وكانت بين الفريقين مناوشة عنيفة، ولكن الجنود الين بادروا بالنزول في أول الأمر تلقوا دعما خفف عنهم من الآخرين بواسطة الزوارق، وصاروا يتقدمون شيئا فشيئا، ولما تمّ نزول جميع الجنود اضطر الاعداء إلى الانسحاب من الميدان[1]، ولما تأهّب المشاة للقتال على فرقتين وقع الشروع في انزال المدفعية والتهيؤ لضرب المدينة، ولكن سكانها بادروا برفع علم أبيض، وطلبوا التفاوض معهم، ولكن تعذّر الوصول إلى أي اتفاق إذ رفض المهاجمون منحهم أي شيء ماعدا الحياة، وتُوبع في ذات الوقت الضرب بالمدافع وقد توقف أحد الفيلقين ليعترض طريق العرب، ولما أحدثت ثلمة في السور دخل الآخرون إلى المدينة ولم يلقوا مقاومة شديدة بينما انسحب النساء والأطفال على مرأى من جيش البحر ولاذ الآخرون[2] بالحصن، وبينما كان الجنود يعملون يد النهب في المدينة قام قوادها تحسّبا لأي غدر او مؤامرة، باحتلال ممرات الحصن وأنذروا الذين بداخله بضرورة الاستسلام إذا أرادوا النجاة بأرواحهم، ولما رفضوا الاستسلام شرع في ضربهم من جهة البر بواسطة مدفعين بينما كانت السفن الحربية السريعة تضرب من جهة البحر، ولما أحدثت ثلمة في صور الحصن، ولو أنها كانت ثلمة غير مواتية، شرع في الصعود إليها بالسلالم ومن فوق دعامة الحائط الممتد من المدينة إلى الحصن، وقد دافع الأعداء عن أنفسهم دفاعا مُستميتا، ولما قتل الحاكم الأتراك وعددا من الأهالي يزيد عن الأربعين انسحب الآخرون إلى البرج الرئيسي، واستسلموا هنالك ووقع استرقاقهم، وفي أثناء ذلك بعث أهل السوسة من ينوب عنهم لدى أندريا دوريا وطردوا الحامية التركية ووقّع معهم الصلح وساروا من شيعة ملك تونس[3].

---

(1) **نفسه**: ص68.

(2)مارمول: **مصدر سابق**، ص68.

(3) **نفسه**: ص69.

ج- تحرير مدينة المهدية(959هـ/1551م):

في بداية (958هـ/1550م) التحق درغوث بمدينة المهدية، ذات الموقع الطبيعي القوي التحصين، كما أنّ لها أبراجا دفاعية جعلت منها إحدى المواقع البحرية الاستراتيجية، واتخذها مركزا وقاعدة له، ينطلق منها في غاراته ضدّ القراصنة الأوروبيين عامة والإسبان بصورة خاصة[1].

وفي(958هـ/1550م) كتب نائب الملك الإسباني في نابولي يُخبر شارلكان عن الحادث، ويؤكّد له أنّ المهدية لها أهمية تساوي أهمية مدينة الجزائر، فراسل السلطان العثماني محتجًا على نقض الهدنة[2]بحكم أنها تحت نفوذ السلطان الحفصي الذي هو تحت حماية شارلكان[3] إلا أنّ السلطان العثماني ردّ عليه بأنّ درغوث من الرياس الأحرار، ولا ينتمي لدولته.

عزم شارلكان على وضع حد لنشاطات درغوث الذي نجح في إنشاء مملكة شبه بحرية على الساحل التونسي، فسيّر أندريا دوريا حملة ضدّ مدينة المهدية تحت إمرة نائب ملك صقلية الدون خوان دي سيجا سنة (959هـ/1551م) [4].

عندما علم درغوث بأمر الحملة دعّمها بخمسمائة مقاتل، وعزز مواقعها بالمدافع والبنادق، ولإشغال القوات الإسبانية في أماكن أخرى وتثبيت قواها، قام درغوث مع نائبه العلج علي بمضاعفة الهجومات البرية والبحرية، وذلك بمساعدة الأسطول الجزائري[5].

وبينما هو يجوب البحر، سمع بإنزال القوات الإسبانية على الشواطئ التونسية، فولّى راجعا إلى المهدية لاعتراض طريق الغزاة، لكنّه أجبر على الإقلاع مجددا، تاركا مهمة الدفاع عن المهدية إلى الحامية العثمانية التي تركها، بالإضافة إلى أهاليها الذين استماتوا في الدفاع عنها، لكن المدينة

---

(1) يحي بوعزيز: "**مقاومة جربة للغزوات الأوروبية في القرن السادس عشر**" أعمال الملتقى حول تاريخ جربة (أفريل1982م)، المعهد القومي للآثار والفنون، جمعية صيانة جزيرة جربة، 1986م ، ص63.

(2) مروش المنور: **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني**، ج2، دار القصبة ، الجزائر، 2006. ص ص109-111.

(3) **نفسه**: ص ص113-114.

(4) مارمول: **مصدر سابق**، ص74.

(5) مروش: **مرجع سابق**، ج2، ص114.

استسلمت في أعقاب هجوم قوي تمّ في (959هـ/10 سبتمبر1551م)، حيث سقط ألف ومائتي شهيد خلال فترة الحصار الذي دام ثلاث أشهر، وتمّ أسر تسعة آلاف ، وبسقوط مدينة المهدية تعرّضت مواقع العثمانيين إلى إضعاف شديد.

بعد استتباب الأمور رجع الدون خوان دي سيجا بأسطوله إلى صقلية، لكن خلّف ابنه الفار حاكما على المهدية، وبحوزته ألف وخمسمائة جندي بتموينهم، إلا أنّ هذا الأخير شقّت عليه لمهمة بسبب نفاذ المؤونة والأموال التي كانت حوزته، مما مكّن له العجز عن تسديد رواتب الجند، فثاروا عليه وعزلوه عن منصبه، وعيّنوا بدله أنطونيوا أبوتي الذي تمكّن نتيجة لبعض الغارات الناجحة في البر والبحر من توفير احتياجات رجاله، سارت الأمور على هذا المنوال إلى أن تمكت نائب ملك صقلية من القضاء على المتمردين[1] .

وفي (961هـ/1553م) أرسل حاكم المهدية الإسباني رسولا إلى نائب الملك بصقلية يستحثّه على ارسال أجور الجند، ويخبره بأنّه إذا لم يتم ذلك فسيجد نفسه مضطرا لقبول عروض مراد آغا والي طرابلس، الذي يعرض عليه باسم السلطان العثماني إنقاذ الحامية وإخراج الأمتعة مقابل تسليم القلعة.

وبمرور الوقت أصبحت تكاليف المهدية باهظة، ولم يعد بوسع شارلكان تحمّل أعبائها من حيث أجور الجند واحتياجاتهم، بالإضافة إلى تكاليف التحصينات التي ينبغي القيام بها لحمايتها من البحارة المسلمين، فقرر الجلاء عنها وكلّف أحد قواده المدعو دون سريلاند داك بتدمير جميع تحصينات المدينة، وتخريبها بعد سحب الحامية الإسبانية منها، كان ذلك في(962هـ/04 جوان 1554م) [2].

وفي هذا الصدد أورد ابن أبي الضياف ما يلي:" وغزى أهل نابلي وجنوة المهدية، وأخذوا ما فيها، وتفرّق أهلها، وهدّموا سورها، ثم أقلعوا، وتراجع إليها بعض أهلها..."[3].

---

(1) روسو: **مرجع سابق**، ص94.

(2) مرمول: **مصدر سابق**، ج3، ص ص88-90.

(3) ابن أبي الضياف: **مصدر سابق**، ج2، ص18.

بعدها قدّم الإسبان اعتذارهم على هجوم المهدية، والتخريب الذي تعرّضت له المدينة، بنيّة أنهم حلفاء لسلطان تونس، ومساعداتهم له من اجل تطهير البلاد من القراصنة الذين استولوا على أحد موانئه[1].

إلا أنّ المتعارف عليه هو أنّ السلطان أحمد الحفصي لم يكن متعاونا مع الإسبان، بل كان في صراع معهم، والعبارة التالية تدلّ على ذلك:" والسلطان أحمد في خلال هذه المدّة مستمر القتال مع الصبنيول المترددين على حلق الوادي، ولاقى أهل تونس منهم الشدائد"[2].

د– تحرير قفصة والقيروان:

ثار أهالي تونس على بني حفص لتواطؤهم مع الإمبراطور شارل الخامس، واندلعت عدّة ثورات داخلية ضدّهم ،اضطر الحسن الحفصي إلى الرّحيل عن تونس طالبا المساعدة من أوروبا، وفي هذه الأثناء ظهر بحري من العثمانيين[3]، درغوث باشا الشهير بدهائه وبانتصاراته العديدة على المسيحيين، وقد استطاع أن يستقرّ في طرابلس ويستولي على القطر التونسي انطلاقا من الجنوب[4]، واستطاع أن يتّخذ من طرابلس قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد البحري في شمال إفريقية[5]، ونجح على التوالي في أخذ قفصة في 20 ديسمبر 1556م[6]، واستنجد أهل القيروان به ضدّ محمد الطيّب الشابي، وانتهز درغوث باشا الفرصة فأستولى على القيروان فقتل صاحبها محمد بن الطيّب الشابي، ثم عاد إلى طرابلس بعد أن عيّن حيدر باشا خلفا له على القيروان[7].

ولكن ظلّ الإسبان يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائه من الحفصيين.

---

(1) جون وولف: **مرجع سابق**، ص67.

(2) ابن أبي الضياف: **مصدر سابق**، ج2، ص18.

(3) عبد المنعم الجميعي: **مرجع سابق**، ص54.

(4) محمد الهادي الشريف: **مرجع سابق**، ص66.

(5)عبد المنعم الجميعي: **مرجع سابق**، ص54.

(6) دلندا الأرقش: **مرجع سابق**، ص54.

(7) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...**، **مرجع سابق**، ص718.

2- علي باشا واسترجاع تونس 1569م:

أ- التعريف بشخصية علي باشا:

وُلد علي في كالاباريا بجنوب إيطاليا وترعرع فيها، أسر في إحدى غزوات خير الدين باشا لجنوب إيطاليا[1]، وكان أثناء ذلك لا يزال صبيا، ولدى اقتسام الغنائم كان من حصة الريّس علي أحمد ومنذ سنة 1524م ظلّ يبرى في داره، وقد اعتنى به عناية خاصة[2]، كان منذ طفولته مولعا بالبحار وحبّ المغامرات، بعد إسلامه أطلق عليه أولوج علي[3]. وخلال فترة وجيزة ارتقى مناصب رفيعة وعلت مكانته، عمل قبل ذلك في سفينة الريّس أحمد وعهِد إليه رئاسة البحارة، فازدادت حصته من الغنائم ولم يكن مبذرا بالأموال بل جمعها واشترى سفينة وأصبح يعمل لحسابه الخاص، فأصبح بذلك من كبار الاغنياء، وقد استغلها للذهاب إلى الشمال الإفريقي وعمل لدى حسن باشا وكان من أصد وأشجع قباطنته، وقد عُيّن العلج باشا أميرا على مدينة تلمسان وقاد عدّة حروب ضدّ الإسبان[4].

وأثناء حرب جربة أظهر بيالي باشا بعض التردد وعلى الفور قام قلج علي باشا بشن هجوم حقق من جرائه نصرا عظيما تكبّد الإسبان من خلاله خسائر فادحة وسيطر عليهم الرعب والخوف، فدُهش الجميع من شجاعة قلج علي باشا، فكافأه السلطان العثماني على هذه الشجاعة والجرئة وعيّنه أمير أمراء طرابلس الغرب إثر استشهاد الريس درغوث، وبقي فيها مدة سنتين ونقل بعدها إلى إمرة الجزائر[5].

---

(1) سامح ألتر: **مرجع سابق**، ص223.

(2)**نفسه**: ص223.

(3) يقول هايدو:"أن أولوج علي حسب تاريخنا عرف وأشتهر بهذا الإسم، وفيما بعد أطلق عليه قلج، وكلمة أولوجوآلوج وأولج هي كلمة تطلق على المسيحيين الذين أسلموا". أنظر ألتر عزيز سامح: مرجع سابق، ص224.

(4) ألتر عزيز سامح: **مرجع سابق**، ص224.

(5) مروش: **مرجع سابق**، ج2، ص138.

عمل علج علي باشا خلال توليه إمارة الجزائر على فرض النظام وتطبيق القانون فأمن الهدوء والاستقرار للجميع، كما قام بترميم القلاع والحصون المهدمة مستغلا فترة انشغال إسبانيا بأمورها الداخلية، بسبب ثورات الاحتجاج والعصيان المتولدة عن الإرهاب الممارس على المسلمين[1].

ب- دور علج علي في تحرير تونس:

لما قرر العثمانيون القيام بحملة بحرية ضدّ فرسان مالطا سنة(973هـ/1565م) كان درغوث وعلج علي من القادة المعارضين لتلك الحملة، لأنهما كانا يريان أن الأولوية لتحرير المواقع المغربية التي تخضع للاحتلال الإسباني كوهران، حجر باديس، وحلق الوادي[2]، لذلك ما إن تولى علج علي الحكم في طرابلس سنة(973هـ/1565م) حتى تغيرت العلاقات بين طرابلس والسلطان أحمد الحفصي الذي كان متخوّفا من سياسة العلج علي الحاكم الجديد لطرابلس، وفي هذا الصدد يُورد بن أبي دينار ما يلي:" وكانت بين السلطان أحمد وعلي باشا ضغائن في النفوس، من وقت استخدامه مدينة طرابلس"[3]، في سنة(971هـ/1563م) توجّهت بعثة إلى اسطنبول وطلبت من السلطان العثماني أخذ حلق الوادي[4]، في هذا الوقت الذي أصبح فيه أحمد الحفصي أشدّ ضعفا وأبعد ما يكون عن ردّ الغزاة والطامعين حتى قال لأحد وزرائه: "لو جاء علي باشا(صاحب الجزائر) وأراد احتلال تونس في عدد يسير من الجند ما كنت ألقاه، وهذا أوانه وغني لفي حيرة من ذلك"[5]. والوزير المتَحدث عنه هو أبو الطيب تاج الخضّار الذي ساءت علاقاته مع سلطانه أحمد الحفصي حتى فكر هذا الأخير في تدبير مؤامرة ضدّه واغتياله، وعندما اكتشف تاج الخضّار ما يدبره ضدّه أحمد الحفصي عزم على الانتقام منه فكانت سرًا علي باشا صاحب الجزائر يعلمه بحقيقة الوضع في تونس ويحرّضه على القدوم إليها

(1) سامح ألتر: **مرجع سابق**، ص ص224-225.

(2) التميمي: **الولايات العربية ومصادرها ووثائقها في العهد العثماني**، ط1، الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1984م ، ص 87.

(3) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص194.

(4) سامح ألتر: **مرجع سابق**، ص228.

(5) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص 172.

واحتلالها، ويعده أنه يكون بجانبه وفي إعانته[1]، وكانت العلاقات بين علي باشا وأحمد الحفصي غير طيّبة منذ أن كان علي باشا متوليّا على طرابلس[2]، ولهذا انتهز الفرصة للإطاحة بخصمه احمد الحفصي فجهّز جيشا كبيرا، واجتمع لديه نحو السبعة آلاف من قبائل مختلفة اجتاز بهم الحدود في طريقه إلى تونس.

واستعدّ أحمد الحفصي لملاقاة مهاجميه، فألتقى بهم قرب باجة معتمدا على خيالته وألف وستمائة من رجاله.

تحرّك علج علي من الجزائر في(977هـ/أكتوبر 1569م) تاركا خليفة له في الجزائر يُدعى مامي قورصو، وأخذ معه جيشا يتألف من خمسة آلف رجل نظامي، وفي طريقه إلى تونس مرّ بمنطقة القبائل وقسنطينة وعنابة، حيث انضمت إليه قوات أخرى من المتطوّعين بلغ عددهم ستة آلاف رجل كما أخذ معه عشرة مدافع، وفي طريقه عزل الشيوخ القدامى وعيّن محلهم قوّادًا عثمانيين في كلّ مكان مرّ به، وحصّن المدن التي عرّج عليها، وبعد مرور يومين على خروج العلج علي من الجزائر التقى الجيشان في مدينة باجة، وكان ذلك في(977هـ/أكتوبر1569م)[3]. كان معظم قادة الجيش الحفصي هم الذين طلبوا من اعلج علي إلى تونس من أجل إنقاذهم، وبمجرّد بدئ المعارك انتقل هؤلاء القادة مع جنودهم إلى صف العلج علي مما حمل السلطان أحمد الحفصي على الهرب[4]. حتى أن العلج علي لما فوجئ بفيضان وادي مجردة ، استنجد بأهل بنزرت الذين سارعوا إلى توفير الألواح والقناطر واصطناع الجسور لعبور الجيش[5]. وهذا يدل حتما على أنّ المناخ النفسي والاجتماعي والاقتصادي الذي

(1) ابن أبي الضياف: **مصدر سابق**، ج2، ص17.

(2) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...،مرجع سابق**، ص718.

(3) سامح ألتر: **مرجع سابق**، ص228.

(4) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...،مرجع سابق**، ص719.

(5) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص195.

كانت عليه البلاد التونسية، قد ساعد بشكل جذري على انجاح مبادرة العلج علي للعمل على ضم تونس، والقضاء على الدولة الحفصية[1].

اقتفى علج علي أثر السلطان أحمد الحفصي إلى أن وصل إلى منطقة" سيدي علي الحطاب"، فتواجه الجيشان ثانية وانهزم أحمد الحفصي مرّة أخرى، ثم توجّه هاربا إلى تونس، وعندما وصل وجد الأبواب موصده في وجهه، فما لبث أن فرّ لاجئا إلى الإسبان في قلعة حلق الوادي طالبا عونهم لاسترجاع مُلكه(2). وقُدّر عدد أتباعه الذين فرّوا معه بخمسة وعشرين رجلا كانوا يحملون أمواله وثرواته، لكنهمتعرّضوا للنهب والسلب من قبل الأعراب[3].

فتحت تونس أبوابها على مصراعيها لعلج علي، الذي دخل قصبتها في(رجب977هـ/ديسمبر1569م)، ونادى المنادي بالأمان، وأخذ البيعة على الأهالي للسلطان سليم الثاني في تونس والمناطق المجاورة لها، وأعلنت الخطبة بالدعاء له على المنابر، وضربت الصِّكة باسمه[4]. ولما استقرت له الأمور، جاءه فرسان الزمازمية[5]، وقالوا له:" نحن خدّام سلطاننا، دافعنا عنه بقدر استطاعتنا، ولا مردّ لحكم الله، فإن شئتم أبقيتمونا في بلادنا، وإن شئتم نتصرّف، وأرض الله واسعة"، لكن علج علي ردّ عليهم بقوله: "قد فعلتم ما وجب عليكم من النّصح والمدافعة عن سلطانكم، فأنتم الآن من جماعتنا"[6].

قضى العلج على أربعة أشهر في تنظيم أمور البلاد، كما قام بتعيين القائد رمضن حاكما عليها، وكلّفه بمعاملة سكانها باللّين، وعيّن عليها جيشا يتكوّن من خمسة آلاف جندي[7] موزّعين على مائتي كتيبة، تتكوّن كل واحدة منها من خمسة وعشرين رجلا تسمى الأوجاق يحكمها رجل يدعى أوجاق

(1) التميمي: **الولايات العربية...،مرجع سابق**، ص95.

(2) بن خروف: **مرجع سابق**، ج1، ص108.

(3) ابن أبي الضياف: **مصدر سابق**، ج2، ص19.

(4) ابن ابي دينار: **مصدر سابق**، ص195.

(5) **الزمازمية**: مستخرجة من قبيلة أولاد سعيد، كتيبة صغيرة أوكلت لها مهمة حراسة فحوص العاصمة.

(6) ابن أبي الضياف: **مصدر سابق**، ج2، ص19.

(7) روسو: **مرجع سابق**، ص96.

باشا. لقد كان الهدف من ترك هذا العدد من الجند تهدئة الأوضاع وضمان الاستقرار داخل البلد وحماية الإيالة العثمانية الجديدة[1].

ج- فشل تحريرهلحلق الوادي:

عزم العلج علي على فتح حصن حلق الوادي وتطهير السواحل التونسية من الوجود الإسباني قبل انسحابه إلى الجزائر، فأصدر الأوامر إلى خليفته في الجزائر مامي قورصو يدعوه إلى تجهيز الأسطول قبل وصوله إلى الجزائر، لأنه سيقوم بالإبحار فور وصوله، وأعلمه أن القصد من ذلك احتلال حلق الوادي، كما طلب مساعدات من السلطان العثماني للقضاء على الحصن الإسباني القوي في حلق الوادي، إذ بدون القضاء على هذا الحصن تظلّ تونس مهددة، ويظلّ النفوذ العثماني فيها معرّضا للخطر[2]. وأثناء انتظاره للأسطول العثماني، توجّه العلج علي على رأس أسطول يتكوّن من تسعة عشر مركبا لاستقبال المساعدة، برفقة أشجع البحارة، ومن بينهم مراد رايس، مامي، مصطفى الأرنؤطي، والرايس جعفر[3].

وفي تلك الأثناء استجدّت تطورات في شرق البحر المتوسط، دفعت بالعثمانيين إلى فرض الحصار على قبرص مما شغلهم عن ارسال المساعدات إلى العلج علي، وأصبحوا يطالبون بإلحاق الأسطول الجزائري ليساندهم، فأستجاب لهم علج علي وأرسل أسطوله بقيادة قارة خوجة رايس، ورجع هو إلى الجزائر معه السفن والأسرى الذين استولى عليهم[4]. فوصل إلى الجزائر في(978هـ/20 جويلية1570م) مؤجلا امر فتح قلعة حلق الوادي ليوم آخر، لكن في رواية أخرى ورد أنّ التونسيين قد ساعدوا العلج علي في حصار قلعة حلق الوادي مع السفن التي جاءت من الجزائر، غير أنّ حاكم

---

(1) التميمي: **الولايات العربية...، مرجع سابق**، ص95.

(2) سامح ألتر: **مرجع سابق**، ص229.

(3) **نفسه**: ص229.

(4) محمد سي يوسف:**قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر**، غير منشورة، جامعة الجزائر، 1988م ، ص108.

صقلية فرنسوا فرديناند أنجد القلعة بخمسة وعشرين غليوطة، إضافة غلى عدد من السفن المالطية مما حمل علج علي على رفع الحصار[1].

لقد أزعجت جهود العلج علي الإسبان نظرا لأنه بات يهدد مصالحهم في المغرب الإسلامي مما حملهم على تحيّن الفرصة المناسبة لاستعادة هيبتهم في المنطقة.

3-معركة ليبانت ونتائجها:

أ- معركة ليبانت(07 تشرين الأول1571م):

تقع ليبانت في الطرف الشمالي للفم الغربي لخليج كرونث في اليونان هذه الأيام، تُعرف ليبانت عند الأتراك تحت إسمإيمه بختي، وهي مدينة تقع شمال المضيق الذي يؤدي من البحر الأيوني نحو خليج كورنيت، والذي أصبح منذ العصور الوسطى يُعرف بخليج ليبانت، وقعت بيد البنادقة خلال القرن 13م.وقد حاول ممد الفاتح افتكاكها منهم في 1477م أثناء حربه معهم غير أنه لم يفلح، وفي 1499م فتحها بايزيد الثاني الذي أنشا بها قلعتين لحماية مدخل الخليج[2]، وقد ارتعدت الدول المسيحية من التقدم العثماني المستمر والذي أحاط بالقارة الأوروبية، لذلك فقد بدأت الحكومات الأوروبية في التفكير بالتصدي لهذا الخطر القادم فأجتمع البابا بيوس الخامس، وملك إسبانيا فيليب الثاني، وجمهورية البندقية بهدف تكوين تحالف يتصدى للتّقدم العثماني في أوروبا، ولم تشترك فرنسا في هذا التحالف، فقد رفض الملط شارل التاسع عرض البابا في الدخول في هذا الحلف بحجة وجود معاهدات بينه وبين العثمانيين.

واندفع الحلفاء لتسريع عملهم لأن العثمانيين فتحوا جزيرة قبرص و كريت وزانتا، وفتحوا ديليسمواوأنتبراي المدينتان الواقعتان على البحر الأدرياتيكي [3].

---

(1) نعيمة بوحمشوش :**مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، غير منشورة، الجزائر،1999م ، ص ص158-159.

(2)نعيمة بوحمشوش: **مرجع سابق**، ص119.

(3)الأمير لاي إسماعيل سرهنك: **تاريخ الدولة العثمانية**، د ط، دار الفكر الحديث، بيروت، ص113.

وبقيادة النمساوي دون جوان وفي السابع من شهر تشرين الأول عام 1571م، وبِعدد مائتان وثلاثون سفينة تحمل ثلاثون ألف جندي، خرج هذا الجيش الضخم من ميناء مسينا إلى جزيرة قورصو في محاذة جنوب إيطاليا متوجّها إلى ليبانت الميناء العثماني في اليونان الذي يقع على خليج (بتراف)-(كورنوفو).

وكان الأسطول العثماني يتكوّن من مائتي وخمسة وأربعون سفينة حربية، وسبعة وثمانون سفينة نقل والذي يقوده علي باشا، وكان الأسطول العثماني رغم كثرة عدده يعاني من نقص شديد من الملاّحين والانكشارية، من المدفعية العثمانية، ولكن علي باشا رأى أن يتصدّى للأسطول العادي في البحار المفتوحة خارج الخليج.

ولما بدأت المعركة كان القتال شديدا، استمرّ ثلاث ساعات وانتهى بانتصار هائل للصليبيين وهزيمة نكراء للعثمانيين لدرجة أن قوات الصليبيين أسروا مائة وثلاثين سفينة عثمانية، وأحرقوا وأغرقوا ثلاثة وتسعون سفينة أخرى وغنموا ثلاثمائة مدفعا، وكان القتلى من العثمانيين قرابة العشرين ألف بين قتيل وأسير، وكان علي باشا وابنه من بين القتلى.

واستطاع المسيحيون تحرير اثنين وثلاثون ألف أسير مسيحي ممن كانوا يقومون بعملية التجديف على المراكب العثمانية، وفي حين تكبّدوا ثمانية آلاف قتيل وجُرح منهم عشرون ألفا[1].

وكان لانتصار الحلفاء دور هائل في الأوساط الأوروبية المسيحية ولم تكن الخسارة العثمانية مادية فقط، فقد كانت هزيمة معنوية عدّها المؤرخون بداية التقهقر والضعف، بعد أن كانت الدولة التي لا تقهر، وبعد صراع مستمر بنى العثمانيون أسطولا آخر أذهل الغرب وأرسلوه يجوب البحار بحثا عن الأسطول المسيحي، الذي توارى مختبئا بعيدا عن العثمانيين، وهاجم الأسطول العثماني في شتاء عام 1573م سواحل إيطاليا[2].

(1) عبد المنعم الهاشمي: **الخلافة العثمانية**، ط1، دار ابن حزمن بيروت- لبنان، 2004م، ص322.

(2) إبراهيم بيك حليم: **التحفة الحليمية**، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ص ص100-101.

عندئذ أسرعت البندقية إلى عقد صلح مع العثمانيين في السابع من آذار عام 1573م في اسطنبول، أهم بنوده هي:

– تتنازل البندقية للسلطان العثماني عن جزيرة قبرص.

–تدفع البندقية تعويضا يغطي ما تكبّده العثمانيون من خسائر في فتح الجزيرة ويقدّر هذا المبلغ بثلاثين ألف دوكا[1].

وكسب العثمانيون الحرب رغم أنّهم خسروا معركة من هذه الحرب، وواجهت الدولة العثمانية هجومات من "دون جوان" على تونس في العام التالي، ولكن العثمانيين واجهوا هذا الهجوم وطردوا الإسبان وأخمدت الحركة الانفصالية في عام 1574م[2].

ب– نتائج معركة ليبانت:

استقر الوضع على الأراضي التونسية التي كانت بمجموعها عدى قلعة حلق الوادي تحت الإشراف العثماني، وضُمت تونس الشمالية إلى الجزائر بفرمان خاص من قبل السلطان، مع العلم أنّ طرابلس كانت تسعى لضم هذا الجزء إليها، إلا أن نية السلطان في ضم أجزاء تونس للإيالتين الشرقية والغربية، قد تأجّل بسبب ضرورة إعداد الجزائر وتونس وطرابلس للتصدي لهجوم الرابطة المعادي للأتراك العثمانيين[3].

عندما خسر الجيش العثماني المعركة تمكّن العلج علي بفضل خبرته في البحرية من انقاذ معظم سفنه، كما استولى على السفينة الحاملة لراية البابوية، ثم توجّه نحو اسطنبول ،أين استقبله السلطان وعيّنه أميرالا على الأسطول العثماني، مع محافظته على سلطته في الجزائر، كما فوّض له أمور ولاية تونس.

---

(1) بيلمازأوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج1، تج عدنان محمود سليمان، منشورات مؤسسة فيصل لتمويل تركيا، اسطنبول،1988م، ص

(2) عبد الهاشمي: **مرجع سابق**، ص323.

(3)نيكولاي إيليتبروشن:**تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين**، تع وتق. عماد حاتم، دار الكتاب الجديد المتحدة،بيروت،2001م، ص38.

وبعد الانتصار الذي حققه جيش الحلف بقيادة الدون خوان، فقرر احتلال تونس[1]. إلا أن البندقية أمضت معاهدة الصلح مع الدولة العثمانية في (03ذو القعدة 980هـ/07 مارس1573م)، ففقد الحلف أحد أطرافه الأساسية، لكن الدون خوان كان عازما على التوجّه إلى تونس[2].

احتفلت القارة الأوروبية بنصر ليبانتو، فلأول مرة منذ أوائل القرن 15ميلادي تحلّ الهزيمة بالعثمانيين، فهلّل الأوروبيون وكبّروا لذلك الانتصار وأقيمت معالم الزينات في كلّ مكان وفرطت في التسبيح بحمل "الدون خوان" أمير السلاطين المتّحدة الذي أحرز هذا الانتصار، وظلّ العالم المسيحي و مؤرخوه ينوّهون بهذا النصر البحري، حتى أن القواميس المدرسية الحديثة لا تذكر ثغر ليبانت، إلا وتذكر معه الدون خوان المشار إليه على اعتبار أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يلحق بها، لقد فرح البابا فرحا عظيما على الرّغم من عدم ارتياحه، لأنّ عدوّه يزال عظيما مرغوب الجانب، فحاول إثارة شكوك الشيعة الصفوية ضد العثمانيين مستغلا بعض الضّغائن والمشكلات و الاختلاف العقائدي فأرسل إلى الشّاه دهماصد ملك العجم ومن جملة ما قال له:" لن تجد أبدا فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين، إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات...". وأرسل يستدعي ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنيّة عجّلته.

إنّ نتيجة معركة ليبانتو، كانت مخيّبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط، ومع زوال الخطر، زال الخوف الذي كان قويّا[3].

إنّ أهمية ليبانتو كانت عظيمة وأسطورة عدم قهر العمانيين قد اختفت ولم تعد للوجود ثانية على أقل تقدير في البحر، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب سكان إيطاليا وإسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية في كل من المجال البرّي، والمجال البحري، كما أنّ الانتصار المسيحي في ليبانتو(1571م) كان

---

(1)التميمي: **الولايات العربية...، مرجع سابق**، ص102.

(2) التميمي: **الخلفية الدينية...، مرجع سابق**، ص15.

(3) علي محمد الصلابي: **الدولة العثمانية(عوامل الظهور وأسباب السقوط)**، ط1، دار اليقين للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض،2006، ص341.

إشارة لتحضير حاسم في ميزان القوّة البحرية في البحر المتوسط، كما أنّه أنهى عصرا من عصور العمليات البحرية الطموحة في البحر المتوسط، والتي تكاليفها باهظة.

لم يعد يفكّر العثمانيون بعد تلك الهزيمة في إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحرية، إذ كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقّف عصر الازدهار لقوّة الدولة البحرية[1].

4- التحالف الحفصي الإسباني الثاني:

أ- نهاية أحمد الحفصي: بعد انهزامه التجئ إلى الإسبان في قلعتهم حلق الوادي وكانت نهاية وزيره الذي خانه وجلب علي باشا فقام علي باشا بقتله، بعد أن علِم الأتراك قوانين البلاد وتصرفاته وأخذ يتصرّف في الأعمال، لأنّ الأتراك ليس لهم خبرة بأحوالها وظنّ أبو الطيب الخضّارأنّ دالته على الأتراك تجعله يستبدّ بالحكم معم لكنهم عاجلوه وقتلوه ونُهبت أمواله[2]، وباستيلاء علي باشا على تونس انتهى حكم أحمد الحفصي، إلا أن أحمد الحفصي أعاد الاستنجاد بالإسبان ضدّ الأتراك العثمانيين. وفعلا عاد أحمد الحفصي بصحبة أسطول إسباني كبير بقيادة "الدون خوان"[3]أخو الإمبراطور فيليب الثاني[4]، في الوقت الذي لم تكن فيه البلاد على استعداد لرد جيش تعداده عشرون ألفًا خاصة أنّ علي باشا لم يُحكم ربط البلاد به، ولم يقوّي استحكاماتها وجهاز دفاعها مكتفيا بتعيين أحد قواده(رمضان) يحم البلد بحامية لا تتجاوز ثمانمائة من الأتراك ومثلهم من عسكر زواوة[5].مما جعل القائد الإسباني الدون خوان قبل نزوله في حلق الوادي يُخرج لأحمد الحفصي كتابا رسميا من الإمبراطور فيه الشروط التي يجب عليه قبولها إذ أراد الجلوس على تلك السلطنة من جديد، وفوجئ أحمد

---

(1) **نفسه:** ص342.

(2) ابن ابي دينار: **مصدر سابق**، ص174.

(3)**الدون خوان: أمير إسباني لكنّه أخ غير شرعي لشارل الخامس، ولد في 24 فيفري1545م، كان ضابطا كبيرا، عندما وصل فيليب الثاني إلى الحكم أرسله للقضاء على ثورة المرسكيين سنة 1568م في غرناطة، ونجح في ذلك وعيّن قائدا عاما للقوات المتحالفة التي واجهت العثمانيين في ليبانت، ثمّ حاكما على هولندا، لكنّه لو يفلح في القضاء على ثورة البروتيستانت، توفّي مسموما سنة 1578م.**

(4) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**، ص721.

(5) ابن ابي دينار: **مصدر سابق**، ص174.

الحفصي بخيبة أمل كبيرة فأبى أن يقبل شروط الإسبان القاضية باقتسام المملكة مناصفة بينه وبينهم، لكن أخوه عبد الله محمد الحفصي كانت من طباعه الخيانة، فاستدعاه الدون خوان فقبل فورًا بتلك الشروط، ليصبح شبحا باهتا لسلطنة موهومة حكمها الفعلي لقوات الاحتلال الإسباني، أما أحمد الحفصي ففرّ إلى جزيرة صقلية وسكن مدينة بُلرم وبقي بها إلى أن وافته المنيّة وجيء به إلى تونس فدفن بزاوية الشيخ قاسم الجليزي[1].

ب – تعيين عبد الله محمد بن الحسن الحفصي سلطانا من طرف الإسبان:

عُيّن عبد الله محمد بن الحسن الحفصي سلطانا فوق متن الأسطول الإسباني، وكان ذلك سنة(980هـ/1572م)، لم تستطع الحامية التركية القليلة ان تصمد أمام الجيش الإسباني فضلت الانسحاب إلى الحمامات إلاّ أنّ أهاليها لم يقبلوهم وغلقوا عليهم الأبواب ومنعوا عنهم الأكل والشرب، وقد ذكر ابن أبي دينار أنّ أهالي الحمامات علّقوا على برج المدينة كلبة سلوقية ميّتة[2] وقالوا لهم: "هذا ما لكم عندنا"[3]، هذا الفعل إن دلّ إنما يدلّ على مدى الانفكاك وانعدام الترابط السياسي والاجتماعي في تلك الفترة ذلك أنّ صدّ أبواب الحمامات أمام الحامية التركية المطاردة من قبل الجنود الإسبان يعني تحالفا– ولو غير مقصود– من سكان البلدة مع الغزاة الإسبان [4].

سيطر اليأس على الحامية التركية المحصورة بين البحر والجيش الإسباني مما جعلهم يصرّون على الانتصار، فخاضوا معركة انتحارية أكسبتهم نصرا ساحقا فقهقروا مطارديهم الإسبان وقتلوا منهم الكثير، وبعثوا برؤوس القتلى إلى القيروان لطمأنه الناس من الرعب الذي أصابهم، وبعد الانتصار السحق للحامية التركية قررت الانتصار من سكان الحمامات، فهاجموا المدينة واقتحموها عُنوة وقتلوا

(1) ابن ابي الضياف: **مصدر سابق**، ج2، ص18.

(2) إنّ ذلك البرج يسمى برج السلوقية إلى اليوم. أنظر ابن ابي دينار: المؤنس، مصدر سابق، ص176.

(3) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص176.

(4) المطوي العروسي: **مرجع سابق**، ص723.

رجالها وسُبيت نساؤهم وحريمهم، ونهبت أموالهم، ثم أتى الشيخ الجديدي فأفتكّ منهم النساء والأولاد وأرجع إلى الحمامات من هرب منها، ورجع الجنود الأتراك إلى القيروان وأقاموا بها[1].

المبحث الثالث

الضّم النهائي لتونس للدولة العثمانية

1-حملة الدون خوان على تونس:

كان للقائد الإسباني الجديد الدون خوان الأثر الفعال لقمع ثورة المرسكيين، وكان له انتصار آخر على القوى الإسلامية عندما تولّى قيادة الأسطول المشترك بين إسبانيا والبندقية والبابا وفرسان القدّيس يوحنّا، وكبّد الأسطول العثماني هزيمة في معركة ليبانت الشهيرة.

هذا هو القائد الذي جاء مع أحمد الحفصي إلى تونس، فماذا ينتظر منه الإسلام والمسلمون وعندما استنجد به أحمد الحفصي وهو العارف بكلّ حالاته ومواقفه، أي أنّ لو طالت الأمة بهذا

(1) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص 177.

الاحتلال الإسباني فكانت نتائجه القضاء المبرم على معالم الهويّة القومية والدينية في هذه الرّقعة من الأرض العربية الإسلامية[1].

اغتنم الإسبان الوضعية النّاجمة عن انتصار ليبانت على الأسطول العثماني فاستولوا على تونس من جديد بقيادة شقيق ملك إسبانيا الدون خوان النمساوي[2]الذي اعتبر هذا الوقت فرصة مناسبة، ففي السابع من أيلول سنة 1573 ميلادي الموافق لجمادى الأولى سنة 981 هجري، تحرّك من صقلية، بأسطول يتألف من مائة وسبع سفن من غاليا وواحد وثلاثون سفينة حربية وسبعة وعشرون ألف جندي متّجها إلى تونس لمهاجمتها، ولم يستطع رمضان باشا الصمود، فأنسحب إلى القيروان أما قبطان البحر فقد حمّل مسؤولية ذلك على السلطان على الرغم من أنّ الباشا ألقى نفسه في التهلكة، فإنّ العاصفة دافعت عنه.

لم يُقصّر العلج علي باشا في أداء مهمته وواجبه، ولو أنّ السلطان استمع إلى توصيات العلج علي باشا بشأن طرد الإسبان من مالطة لما تعرّضوا لهذه الخسائر، لأنّ العلج علي باشا خطط لطردهم منها منذ ثلاث سنوات.

أصيب الدون خوان بالغرور من جرّاء انتصاره في معركة ليبانت الجديدة، ووصل غروره إلى حد السُكر، بحيث عزم على إقامة مكان لائق بمقامه على السواحل الإفريقية متبوعا بتحريض البابا وتشجيعه ،وعلى كل حال فإن ملك إسبانيا أمر الدون خوان بالعودة بعد تهديمه للتحصينات الموجودة في مالطا، وفعلا فقد أحالها إلى خرابة مملوءة[3] بالدّماء، وهجرها من السّكان بحيث لم يكن هناك أي ضرورة لمقاتلة الأتراك نيابة عمّا حدث، لأنه أقنع بني حفص في تونس والأشراف في فاس وبقية الأعداء برمي الأتراك في البحر.

(1) أحمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...**، **مرجع سابق**، ص ص727-728.

(2) محمد الهادي شريف: **مرجع سابق**، ص66.

(3) ألتر عزيز سامح: **مرجع سابق**، ص244.

رفض الدون خوان تعليمات ملكه، وباشر بإقامة التحصينات، إضافة إلى مالطا، كذلك فقد سيطر الإسبان على جزيرة سان جاك أو جزيرة شكلي الواقعة في بحيرة تونس، كذلك فقد أقام الدون خوان بين المدينة والبحيرة حصنا سماه(باب البحر).أمر الملك الإسباني بإحياء عائلة بني حفص وتقويتها، لكن الحاكم السابق حميدة أراد الاستقلال، فعزله الدون خوان وعيّن مكانه مولاي محمد شريطة دفعه الخراج لإسبانيا .

ولدى سماع الملك الإسباني بأنّ الدون خوان يريد أن يقيم مملكة خاصة به في تونس غضب غضبا شديدا، فأمره بالعودة فورا وبأقصى سرعة، فعاد الدون خوان إلى إسبانيا بعد أن ترك ثانية آلاف جندي وعهد إلى غابيروفربلينو بقيادتها وأمره بالمحافظة على المواقع التي احتلها[1].

2- سنان باشا والقضاء على الوجود الحفصي والإسباني:

من الأسباب التي جعلت السلطنة العثمانية تفكر جديا في تخليص عدة مناطق من المغرب الإسلامي المحتلة من قبل الإسبان: بعد هزيمة ليبانت حيث جددت فيه السلطنة العثمانية أسطولها بعد هزيمتها في معركة ليبانت، بالإضافة إلى الصلح الذي أبرمته مع البندقية سنة1573م...إلخ.

وبالرّغم من الظروف السياسية كانت ملائمة لتوجّه الأسطول العثماني مباشرة إلى تونس فإنّ بعض المعلقِين يذكر أنّ الأسطول العثماني كان يعتزم نجدة الثّوار المرسكيين في جبال البشرات بالأندلس، فلما بلغه[2]القضاء عليهم وانهزامهم غيّر وجهته إلى تونس، وهو افتراض يسهّل دفعه بواقع البلاد التونسية نفسها، فبالإضافة إلى وجود قوات تركية في طرابلس والجزائر فإنّ الحامية الإسبانية لم يعد في إمكانها الصّمود إذ جاءت نجدة تركية كبيرة خاصّة أن تلك الحامية تقلّص عددها إلى نحو

(1) **نفسه**: ص245.

(2) أحمد المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**، ص729.

أربعة آلاف جندي منذ أن غادرها القائد دون خوان وتركها متحالفة مع محمد الحفصي الذي لا يمثّل قوة ذات بال.

أما أسطورة رؤية السلطان العثماني لمحرز بن خلف واستنجاده به فما نحسب إلا أنها رد فعل ساذج أخذًا بثأر ضريح محرز بن خلف الذي عبث به الإسبان ونبشوا قبره[1].

ومهما يكن فقد تمّ الاستعداد العثماني لتلك الحملة وخرجت العمارة العثمانية من القسطنطينية في غرّة ربيع الأول (981هـ/1573م) بقيادة سنان باشا[2]، وتجمعت قطع الأسطول في ميناء مورين ثمّ أقلع الأسطول حتى وصل إقليبية بعد إحدى عشرة يوما، وبعد استراحة هناك تابع سيره إلى ميناء حلق الوادي، والقول بأنّ الأسطول العثماني استراح بإقليبية يثير شيئا من التفاؤل من أنّ الجيوش التركية التي سبقت قدوم الأسطول العثماني وحاصرت حصن حلق الوادي لم تكن على علم بوصول الأسطول، وأنّها كادت تفكّ الحصار الذي ضربته على الحامية الإسبانية، وقبل وصول العمارة العثمانية بيوم أن وصل تونس الباشا حيدر من القيروان وكذلك مصطفى باشا صاحب طرابلس، فحضرا إلى تونس ونزلا معا بإزاء المدينة في سيجوم لقصد محاصرتها، وفي آخر اليوم ظهرت مراكب في البحر فضنوا انها نجدة للعدوّ وقرّروا الرّحيل ليلا[3]، لولم يصلهم رسول من سنان باشا، وأعلمهم بحقيقة الأمر، وذهب إليه القواد الأتراك لتحيته والاستعداد لمجابهة القوات الإسبانية المتمركزة خارج قلعة الباستيون[4] خارج صور العاصمة وقلعة حلق الوادي الحصينة وسهل على العثمانيين السيطرة على تونس لأنها كانت شبه خالية من العباد والجند، واستعدت القوات التركية بقيادة سنان باشا

(1) ابن أبي الضياف: **مصدر سابق**، ج2، ص19.

(2) محمد الهادي شريف: **مرجع سابق**، ص66.

(3) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص187.

(4) **الباستيون**: لفظة إسبانية وتعني القلعة، وكان هذا الحصن واقعا خارج باب البحر حيث السفارة الفرنسية الآن. أنظر المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...**، **مرجع سابق**، ص726.

لخوض المعركة الفاصلة لا سيّما مهاجمة قلعة حلق الوادي التي ظلّ الإسبان طيلة43 سنة يشددون من استحكاماتها الدفاعية[1].

منذ البداية يجدر القول بأنّ القوات الإسبانية لم تكن وحدها المتصدّية للقوات التركية العثمانية، فقد كان مع الإسبان عدد كبير من المهجرسين الذين يتتبعون منافعهم المادية الشخصية، فقد كانت قوات الاحتلال الإسباني تُغريهم ماديا بالأموال، فقد عُرف انّ لهم أكثر من مائتي منزل حل قلعة حلق الوادي، وأنّ حصن الباستيون كان به سبعة آلاف جندي الكثير منهم من أولئك المهجرسين الذين كثيرا ما ينعتهم ابن أبي دينار بالمرتدّين[2].

– تحرير سنان باشا لقلعة حلق الوادي:

ابتدأت المجابهة بحصار قلعة حلق الوادي، وكانت أقوى عقبة دفاعية تتمثل في الخندق العميق بحوالي ستين ذراعا الذي يحيط بالقلعة ويحول دون الوصول إليها، وابتدأ الحصار أولا حسب الطرق التقليدية رميا بالمدافع والبنادق والمنجنيقات، ولكن ما عند الإسبان من ذخيرة ومؤونة جعلهم لا يعبؤون بالحصار ولا بهذا النوع من السلاح، وكانوا في أحيان كثيرة يخرجون من الحصن صحبة المهجرسين ويلتحمون مع الأتراك ويسقط العديد من القتلى من صفوف الجانبين، وعندما طال الحصار بدون نتيجة عزم الأتراك ردم الخندق العميق مهما كان الثمن، وكانت العملية هي ردم الخندق بالصوف والرمل والحطب والرصاص حتى يتمكنوا من التغلب على الماء وعبور الخندق[3] ، ولمّاإنتلء الخندق بالتراب بنوا المتاريف فوقه وصار الماكن أعلى من حيطان البرج، وبذلك تمكنت المدافع أن تلقي كوّرها داخل الأسوار، وأن تصيب مباشرة أهدافها، ومما عجّل باقتحام الحصن ما ذكرناه من أنّ المهجرسين والإسبان كانوا يقومون من حين لآخر بحملة مفاجأة على المحاصرين لهم، وأنهم في إحدى المرّات خرجوا إلى ناحية رادس حيث يوجد أحد القادة الشعبيين يسمى(محمد بن

(1) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**، ص731.

(2) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص ص188-189.

(3) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...، مرجع سابق**، ص733.

عرب) مع جمع من المتطوّعين التونسيين، وداهموهم ليلا على حين غفلة، إلا أنّ قائدهم كان يقضا مستعدا فقابلهم بقواته حتى هزمهم وأجبرهم على الفرار والعودة إلى حصن حلق الوادي بعد أن قتل منهم عدد كبير مما جعلهم يُذهلون عن غلق باب القلعة في الوقت الذي كان فيه عدد من الفدائيين لاقتحام الفرصة بأي طريقة كانت فاندفعوا داخل القلعة وتبعتهم الجموع وأغمدوا سيوفهم ي الحامية الإسبانية، وقد تمّ ذلك في (6جمادى الثاني 981هـ/أكتوبر1573م) بعد حصار دام ثلاثة وأربعون يوما[1].

وبعد الانتهاء من تحرير قلعة حلق الوادي اتّجه سنان باشا بقواته إلى حصن الباستيون.

– تحرير حصن الباستيون:

اتجه سنان باشا إلى حصن الباستيون فقوي عزم الأتراك المحاصرين له، وحُملوا جميعا إلى الحصن فقُتل من الإسبان وأحلافهم المهجرسين أكثر من ثلاثة آلاف، وأشتدّ الالتحام بين المقاتلين وتتطاعنوا بالخناجر حتى تمكّن الأتراك من التغلّب الكامل على من فيه، ولم ينجوا من الإسبان إلا من تمكّن من الفرا والتجئ إلى قلعة شكلي ببحيرة تونس، واستولى الأتراك على ما في الحصن من ذخيرة وسلاح وأمتعة ولباس وآلات الحرب والبارود، ويذكر ابن أبي دينار أنّه لما أخذ الباستيون وجدوا الجامع الذي هو خارج باب البحر ممتلئ بالسلاسل والأغلال، ويتوقّع أنّ تلك الأغلال والسلاسل كانت تستعمل ضدّ المسلمين وإجبارهم على التنصّر[2].

أمّا الإسبان الذين التجئوا إلى جزيرة شكلي فقد طلبوا الأمان من القائد العثماني سنان باشا وأعلموه بأمور مهمة، منها أنّ عندهم مائتين وخمسة من رجالهم أهل صناعات غريبة منها عمل الطواب، تذويب النحاس والحديد، وعمل المدافع الكبيرة وغير ذلك من الصناعات فأعطاهم الأمان ثمّ استخدمتهم الحكومة العثمانية في تلك الصناعات[3].

---

(1) ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص191.

(2)ابن أبي دينار: **مصدر سابق**، ص195.

(3) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...**، **مرجع سابق**، ص734.

أمّا مصير عبد الله محمد بن الحسن الحفصي فقد حمله معه سنان باشا إلى إسطنبول فاعتقل هناك خشية فراره واستنجاده بالإسبان مرّة أخرى، وظلّ في اعتقاله هناك حتى وفاته[1]، وانقرضت السلطنة الحفصية نهائيا بانتصار الاتراك العثمانيين على الإسبان، فتمكّن سنان باشا من استرداد تونس عام(1574م) وقام بإبادة الحامية الإسبانية[2]، فأنقذها من الإسبان ومن الحسن الحفصي، وعيّن لها حيدر باشا واليا وترك معه العساكر الكافية[3] ودخلت البلاد التونسية مرحلة جديدة من تاريخها وبدايتها التبعية للسلطنة العثمانية التركية[4].

3- تونس إيّالة عثمانية:

لما اتمّ سنان باشا فتح تونس، أخذ ينظم شؤونها فألحقها في بداية الأمر بولاية الجزائر، لكنّه أوجد بالقصبة "ديوانا" أشرك فيه بعض أعيان البلاد، وعهد بحراسة البلاد إلى أربعة آلاف جندي من الانكشارية على كلّ100 جندي منهم ضابط يسمى "الداي" وجعل لهم رئيسا هو "الأغا"، بينما عهد بجباية المال بمأمور لقّب "الباي"[5]، وقبل أن يغادر سنان باشا تونس عمل على تنظيم شؤونها، وكان من أهم تنظيماته توفير قاعدة عسكرية، كما كوّن فيها إدارة كانت فرقة الانكشارية مدار قوّتها، وأعضائها من المجلس الذي يرئسه الباشا ممثل الدولة العثمانية، ويساعده ديوان استشاري مكوّن من كبار الضباط والمسؤولين، وعلى رأس كلّ هؤلاء الباشا لذي كان يطلق عليه الآغا أو الباي، وبعد أن نظّم سنان باشا أمور تونس غادرها إلى اسطنبول ومنذ ذلك التاريخ تتابع على حكم تونس عدد كبير من البايات كان أشهرهم "عثمان باي" الذي حاول النّهوض بالبلاد و"يوسف باي" الذي نهض بالنواحي التعليمية، وظلّت تونس يحكمها الولاة حكما مباشرا ويتوارثها أبنائهم أحيانا[6].

---

(1) ابن ابي الضياف: **مصدر سابق**، ج2، ص21.

(2) عبد المنعم الجميعي: **مرجع سابق**، ص55.

(3) ابراهيم بيك حليم: **مرجع سابق**، ص228.

(4) المطوي العروسي: **السلطنة الحفصية...**، **مرجع سابق**، ص734.

(5) شوقي عطاء الله الجمل: **مرجع سابق**، ص108.

(6) عبد المنعم الجميعي: **مرجع سابق**، ص55.

الخاتمة

:

من خلال ما تقدّم من دراستنا هذه نستنتج ما يلي:

– بعد أن استكملت إسبانيا لوحدتها السياسية أصبحت إمبراطورية تقود المسيحيين، فتفرغت للقضاء على الإسلام والمسلمين.

– ضعف الدولة الحفصية التي حكمت مدة زمنية طويلة من القرن الثالث عشر ميلادي بسبب الحالة التي كانت تعيشها والفوضى والتطاحن على السلطة.

– أدى ضعف الدولة الحفصية بنتيجة حتمية تمثلت في الغزو المسيحي، الذي كان يتحيّن الفرصة للانقضاض على البلاد المغربية.

– الموقع الاستراتيجي الذي كانت تتمتع به البلاد التونسية، جعلها عرضة للأطماع الإسبانية.

–استنجاد الحسن الحفصي بشارلكان الذي اعتلى عرش الإمبراطورية الإسبانية.

–اتخذشارلكان به ذريعة لشن الحرب ضدّ تونس واحتلال السواحل الحفصية.

– ظهور عدّة مجاهدين وأبطال نشؤا في خدمة الخلافة العثمانية وأسطولها، فراحوا يجوبون البحار لتخليص سواحل المغرب الإسلامي ومنها السواحل التونسية، وهم الإخوة بربروس عروج وخير الدين.

–لعب خير الدين دورا كبيرا في إنقاض السواحل المغربية والتونسية بشكل خاص.

– بعد استنجاد الحسن بالإسبان لمساعدته للتخلص من خير الدين ، جهّز شارلكان حملة على تونس (942هـ/1553م)، تضمّ أسطولا كبيرا وذلك للانتصاب والتمركز بالسواحل الشرقية للمغرب الإسلامي.

–بالرغم من تصدي خير الدين لهذا الهجوم، إلاّ أنّ ميزان القوة حسم النتيجة لصالح شارلكان، حيث تمكنت جيوشه من احتلال قلعة حلق الوادي ومدينة تونس.

– على إثر الحملة تراجع خير الدين منسحبا إلى عنابة ومنها إلى الجزائر.

– هدف حملة شارلكان هو القضاء على النفوذ العثماني الذي يهدد المشروع الإسباني في المنطقة.

– تعرضت مدينة تونس إلى النهب وعمليات الانتقام وخسائر بشرية.

– فرض شارلكان على السلطان الحفصي شروطا مُهينة، منها أن يسكن الإسبان حيث شاءوا من المدن التونسية، وأصبح الحاكم الإسباني قرينا للسلطان الحفصي.

– توقيع معاهدة في أوت 1535م بين الحسن الحفصي وشارلكان، التي وضعته في أدنى مراتب الذل والإهانة، والتي تحولت فيها البلاد إلى شبه مستعمرة إسبانية، وسُلم حصن حلق الوادي للإسبان.

– سيطر الإسبان على المدن ذات الموقع الاستراتيجي الواردة أسماؤها ضمن المعاهدة، كما حاولوا أن يجعلوا المدن الأخرى بإقليم تونس خاضعة لتابعهم الجديد السلطان الحسن الحفصي، الذي أصبح رمزا للخيانة لدى الأهالي خاصة بعد أن أباح للإسبان مدينة تونس، الذي انتهى حكمه بانقلاب ابنه عليه.

– بعد ظهور الرايس درغوث الذي افتكّ طرابلس من فرسان مالطا تمكن العثمانيون من وضع أقدامهم في المنطقة وذلك سنة 1556م.

–نجح درغوث باشا في أخذ قفصة سنة 1556م والقيروان سنة 1558م وأحتلّهما، وبذلك وجّه ضربة قاضية للشابيين.

– بفضل نشاط درغوث باشا مهّد بذلك للحملة التي قادها العلج علي سنة 1569م.

– حملة الدون خوان كانت آخر المحاولات الإسبانية ضدّ العثمانيين لطردهم من تونس سنة 1569م.

– انكسار العثمانيين وهزيمتهم أمام الإسبان في معركة ليبانت1571م.

– تمثّل رد الفعل العثماني بعد معركة ليبانت في حملة سنان باشا سنة 1574م.

– تحرك الجيش بقيادة سنان باشا والأسطول بقيادة العلج علي وتمكنوا من استرجاع تونس بعد الحصار.

– تمكن سنان باشا بعد هذه الحملة من تحقيق انتصار ساحق على الإسبان، فحرر تونس وضمّها نهائيا تحت لواء الدولة العثمانية، كما تمكن من القضاء على الوجود الحفصي والإسباني.

– قام سنان باشا بتمهيد البلاد وتأمين العباد، وسنّ قوانين ونُظم إدارية بقية ثابتة من بعده، وبذلك أصبحت تونس إيّالة عثمانية رسميا سنة 1574م.

الملاحق

قائمة الملاحق

إنّ الملاحق لها أهمية كبيرة فهي توضّح ما جاء في المذكرة، وتعطي للقاء صورة أقرب لفهم الموضوع، ونظرا لأهمية هذه الملاحق في الدراسة التاريخية، فأخترنا أن نعرض ما يخدم موضوعنا، من خرائط وصور.

– الملحق رقم(1): صورة لإحدى معارك عروج و خير الدين بربروسة

– الملحق رقم(2):صورة لمعركة ليبانتو عام 1571م

– الملحق رقم(3):صورة خير الدين بربروس.

– الملحق رقم(4):صورة لحصن الإسبان بجزيرة جربة

– الملحق رقم(5):خريطة تبين مناطق النزول الإسباني والبرتغالي للمغرب الإسلامي.

– الملحق رقم(1): صورة لإحدى معارك عروج و خير الدين بربروسة

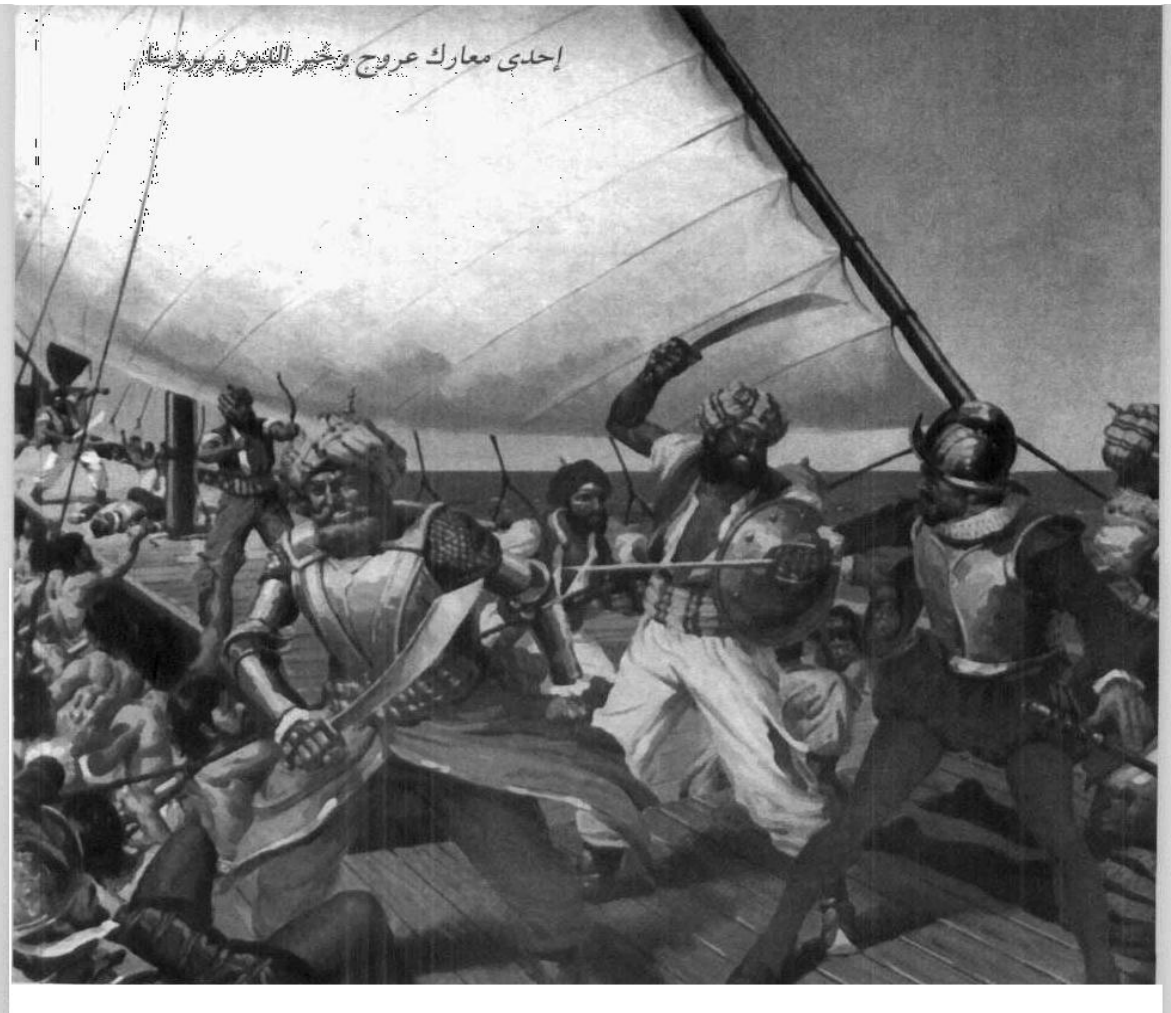

– الملحق رقم(2):صورة لمعركة ليبانتو عام 1571م

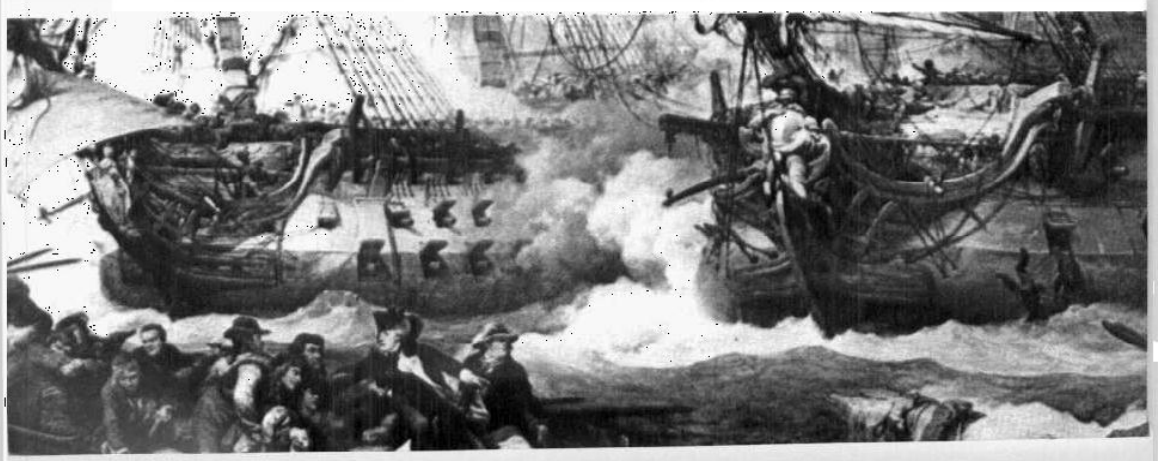

– الملحق رقم(3):صورة خير الدين بربروس.

– الملحق رقم(4):صورة لحصن الإسبان بجزيرة جربة

– الملحق رقم(5):خريطة تبين مناطق النزول الإسباني والبرتغالي للمغرب الإسلامي.

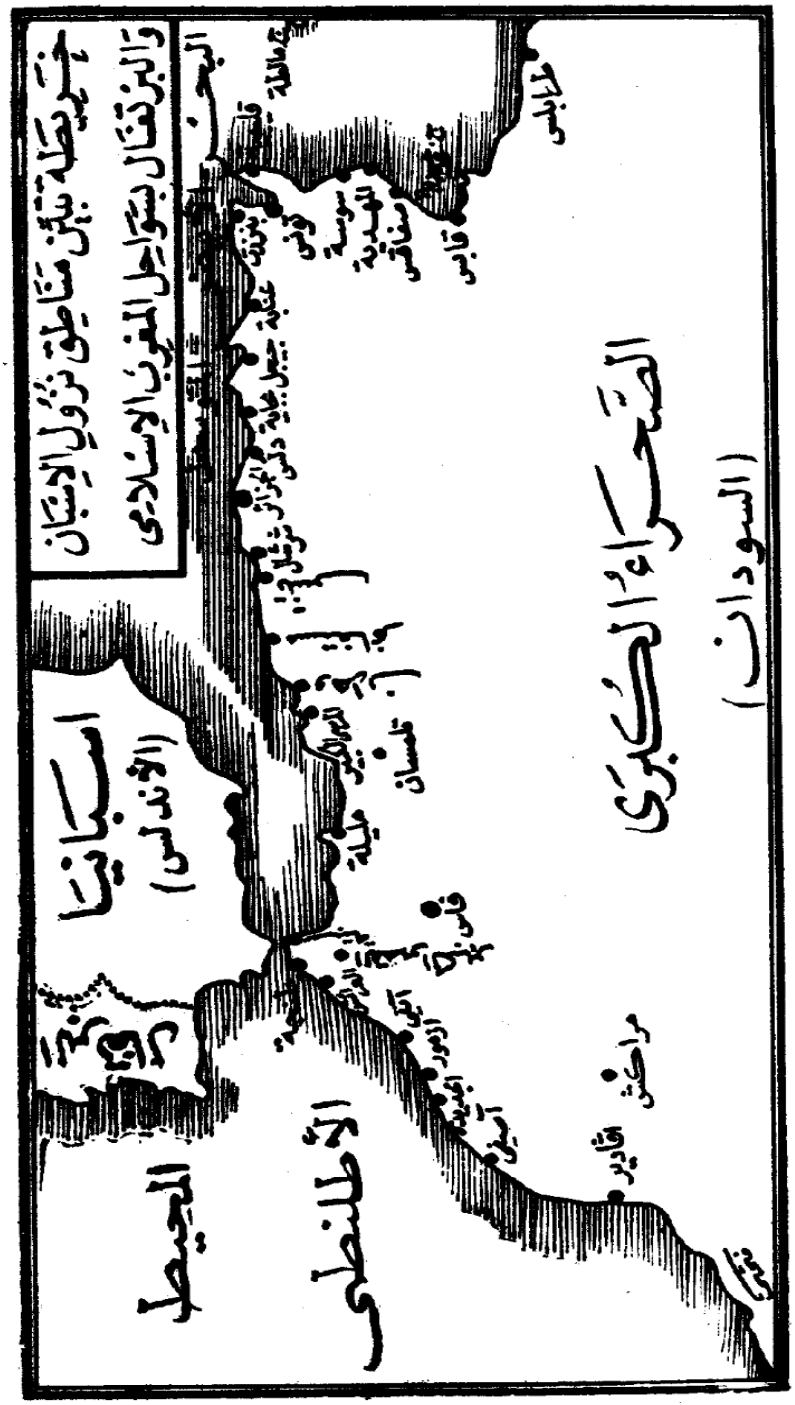

الحروب الصليبية - خريطة عدد (18)

المصادر والمراجع

أولا– المصادر:

1–اوهابنستيرايت: رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، تع ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس،2008م.

2– ابن الشّماع أبو عبد الله محمد بن أحمد: الأدلّة البينة النورانية من مفاخر الدولة الحفصية، تع الطاهر محمد المعموري، دار العربية للكتاب، تونس،1584م.

3– ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، المطبعة التونسية، 1286م.

4–إبن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تع وتح محمد الشاذليالنّيفر وعبد المجيد التركي، دار التونسية للنشر، تونس، 1968م.

5–بن أبي الضياف أحمد: إتّحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج2، د ط، الدار التونسية للنشر، الجزائر– تونس، 1977م.

6–بربروس خير الدين: مذكرات، تع محمد درّاج، الأصالة، الجزائر، 2010م.

7–التيجاني أحمد: الرحلة، تح حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 2005م.

8–الجربي محمد أبو راس: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تح وتع محمد المرزوقي، ط2، تونس، 1960م.

9– السرّاج محمد الوزير: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تع وتح محمد الحبيب الهيلة، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1985م.

10–كربخال مارمول : إفريقيا، تع محمد جعّي وآخرون، د ط، المعرفة، الرباط،1988– 1989م.

11– المجهول: غزوات عروج وخير الدين، تع نور الدين عبد القادر، د ط، المطبعة الثعالبية المكتبة الأدبية، الجزائر، 1930م.

12– الوزان حسن بن محمد: وصف إفريقيا، تع محمد حجّي وآخرون، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1993م.

ثانيا– المراجع:

1–ألتر عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تع. محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت،1989م.

2– أتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911م، تع وتق. خليفة محمد التليسي، دار الثقافة بيروت، 1974م.

3–أتوري روسي: طرابلس تحت الإسبان وفرسان مالطة، تع وتق. خليفة محمد التليسي، ط1، مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر، طرابلس، 1969م.

4–أندري شارل جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تع. محمد المغالي والبشير بن سلامة، ج3، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس،1983م.

5–أوغلي (أكمل الدين إسحاق): الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، تركيا، 2002م.

6–الأرقش دليندا والأرقش عبد الحميد وبن الطاهر جمال: المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي ميديا كوم، تونس، 2003م.

7–بن أبي عامر: الدولة الحفصية: د. ط، دار الكتب الشرقية، تونس، 1974م.

8–بلغيث محمد الأمين: فصول في التاريخ والعمران بالمغرب الإسلامي، ط1، منشورات أنترسي، الجزائر، 2007م.

9–برنشفيكروبار: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي(من القرن13م إلى نهاية القرن15م)، ج1، تج.حماديالفاحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م.

10– بن خروف عمار: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن (10هـ/16م)، ج2، دار الأمل، الجزائر، 2006م.

11–الباروني عمر محمد: الإسبان وفرسان القديس يوحنّا في طرابلس، مطبعة ماجين طرابلس، 1985م.

12–التميمي عبد الجليل: الولايات العربية ومصادرها ووثائقها في العهد العثماني، ط1، الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1984م.

13– الجمل شوقي عطاء الله: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1977م.

14– الجميعي عبد المنعم إبراهيم: الدولة العثمانية والمغرب العربي، د ط، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008م.

15–روسو ألزون: الحوليات التونسية، تج محمد عبد الكريم الوافي، منشور جامعة فاريونس، بنغازي.

16–سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800–1830م)، الجزائر، 1979م.

17–سعد الله أبو قاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط2، ش .و. إ ، الجزائر، 1981م.

18–الصلابي علي محمد: دولة الموحدين، ط1، مكتبة حسن العرية، بيروت– لبنان، 2009م.

19–الصلابي علي محمد: الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، ط1، دار اليقين للنشر والتوزيع، المملكة العربي السعودية، الرياض، 2006م.

20–صالح عباس: الجزائر خلال الحكم التركي (1514–1830م)، ط2، دار الهومة، الجزائر، 2007م.

21–طقوش محمد سهيل: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط2،دار النفائس، بيروت، 2008م.

22–عاطف عبيد: قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم، د ط، موسوعة ناشر في جميع أنحاء العالم، 1998م.

23–العروسي محمد المطوي: السلطنة الحفصية (تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي)، د ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، (1406هـ/1986م).

24–العروسي محمد المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1986م.

25–فاروقي ثريا: الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، تع حازم الطّحاوي، ومراجعة عمر الأيوبي، ط1، دار الإسلامي، بيروت، 2008م.

26– فيرو شارل: الحوليات من الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تع و تح محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة فاريونس، بنغازي–ليبيا،1994م.

27–فريد بيك: تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تح إحسان حقّي، دار النفائس الوهاب الدار العربية للكتاب، ونس، 2005م.

28–محمد الأمين محمد: المفيد في تاريخ المغرب: دار الكتاب، د ط، الدار البيضاء.

29–نيقولاي إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية (1516–1574م)، تع يوسف عطاء الله، ط2، دار الغرابي، بيروت، 2004م.

30–وولف جون: الجزائر وأوروبا (1500–1830م) ، تع أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

31–يلماز أوزتونة: تاريخ الدولة العثمانية، تع عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري، ج2، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988م.

ثالثا– المقالات:

1–بوعزيز يحي:"مقاومة جربة للغزوات الأوروبية في القرن السادس عشر" أعمال الملتقى حول تاريخ جربة (أفريل1982م)، المعهد القومي للآثار والفنون، جمعية صيانة جزيرة جربة، 1986م.

2– الشابي علي: "مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية"، م.ت.م، ع 14/13، تونس،1979م.

3–التميمي عبد الجليل: الخلفية الدينية للصراع العثماني/ الإسباني على الإيالات المغربية في القرن التاسع عشر، م.ت.م، ع 11/10، تونس، 1978م.

رابعا– المذكرات:

1–سعيود إبراهيم: الأسرى المغاربة في إيطاليا خلال العهد العثماني ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، غير منشور، جامعة الجزائر، الجزائر، (2009–2010م).

2– إكليل صالح: سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ جامعة باتنة (2006–2007م).

3–بوحمشوش نعيمة :مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، غير منشورة، الجزائر،1999م .

4– دكاني نجيب: الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن (10هـ/16م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، غير منشور، جامعة الجزائر، (2001–2002م).

5– سهيل جمال: البعثات الدبلوماسية المغربية إلى البلاط الفرنسي خلال القرن (11هـ/17م)، رسالة معدّة لنيل شهادة الماجستير في تخصص التاريخ الحديث، غير منشورة، المركز الجامعي بغرداية، (2010–2011م).

6–سي يوسف محمد: قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، غير منشورة، جامعة الجزائر.

فهرس المحتوى

العنوان	الصفحة
الإهداء:.....	
شكر وتقدير:.....	
قائمة المختصرات:.....	
مقدمة :.....	1
الفصل التمهيدي: لمحة جغرافية وتاريخية لتونس.....	9
المبحث الأول : تعريف تونس جغرافيا	10
1- إقليم تونس:.....	10
2- الموقع الجغرافي	10
أ- الموقع والإمتداد:.....	10
ب- السهول الساحلية:.....	11
ج- المناخ والثروة المائية:.....	12
المبحث الثاني :لمحة تاريخية عن تونس.....	14

1- تعريف تونس تاريخيا:.....	14
2- تونس عاصمة الإقليم:.....	15
3- حصن حلق الوادي:.....	16
المبحث الثالث : الدولة الحفصية (628هـ/934هـ) (1229م/1536م)	17
1- أصل ونسب الحفصيين:.....	17
2- انحطاط وضعف الدولة الحفصية:.....	19
3- أسباب سقوط الدولة الحفصية:.....	20
الفصل الاول:الاحتلال الاسباني لتونس	22
المبحث الاول :دوافع الاحتلال الاسباني لسواحل المغرب العربي	23
1-الدوافع الاسبانية:.....	23
أولا:الدوافع الدينية:.....	23
ثانيا:الدوافع السياسية:.....	24
ثالثا:الدوافع الاقتصادية:.....	24
رابعا:الدوافع العسكرية:.....	25
خامسا:الدوافع الاستراتيجية:.....	26
2-التحرشات الاسبانية على سواحل المغرب العربي	27
3-بداية النزول الاسباني في الشواطئ الحفصية	28
ا-سقوط طرابلس في يد الاسبان:.....	29
ب-جربة تصمد أمام الاسبان:.....	30
ج-فشل الغزوات الاسبانية الاولى:.....	31
4-العلاقات الاسبانية الحفصية قبل القرن(10هـ/16م)	33
5-العلاقات الاسبانية الحفصية بعد القرن(10هـ/16م)	35
ا-بجاية:.....	35
ب-طرابلس:.....	36
ج-جربة:.....	37

المبحث الثاني:تدخل الدولة العثمانية لإنقاذ السواحل لمغربية من التحرشات الاسبانية	41
1-ظهور خير الدين وعروج في الحوض المتوسط	41
2-مواجهة الأخوين للاسبان في بجاية وتحرير جيجل:.....	42
ا-محاولات تحرير بجاية:.....	42
ب-تحرير جيجل والاستقرار بها(920هـ/1574م)	43
3-خير الدين في تونس:.....	44
4-ضم خير الدين لتونس:.....	45
5-هزيمة الحسن الحفصي امام خير الدين:.....	48
المبحث الثاني:حملة شاركان على تونس.....	50
1-دوافع الحملة:.....	50
ا-موقع تونس:.....	50
ب-استنجاد السلطان الحسن بشارلكان:.....	52
2-هجوم شارلكان على تونس :.....	53
3-توقيع معاهدة بين مولاي الحسن وشارلكان:.....	56
4-نتائج حملة شارلكان:.....	57
ا-سقوط حلق الوادي:.....	57
ب-سيطرة الأسرى المسحيين على تونس:.....	58
الفصل الثاني:تونس بين القوة العثمانية والاسبانية:.....	59
المبحث الاول:النفوذ الاسباني الحفصي	60
1-المدن الحتلة من طرف الاسبان(المهدية،بنزرت،عنابة)ومحاولة احتلال القيروان ومدن اخرى.....	60
ا-محاولة السيطرة على المهدية:.....	60
ب-الاحتلال الاسباني لمدينة بنزرت (942هـ/1535م):.....	60
ج-احتلال مدينة عنابة(942هـ/1535م):.....	61
د-محاولة احتلال القيروان:.....	62

2-نهاية الحسن الحفصي عى يد ابنه احمد:.....	63
ا-علاقة احمد الحفصي بالاسبان والعثمانيين:.....	65
ب-احمد الحفصي بين الاسبان والعثمانيين:.....	66
المبحث الثاني:تحرير المدن المحتلة من الاحتلال الاسباني:.....	67
1-درغوث باشا وتحريره للمدن المحتلة:.....	67
ا-التعريف بدرغوث باشا:.....	67
ب-استلاء درغوث باشا على سوسة والمنستر وطرده اندريا دوريا منها:.....	67
ج-تحرير مدينة المهدية (959هـ/1551م)	69
د-تحرير قفصة والقيروان:.....	72
2-علي باشا واسترجاع تونس1569م:.....	72
ا-التعريف بشخصية علي باشا:.....	73
ب-دور علج علي في تحرير تونس:.....	76
ج-فشل تحريره لحلق الوادي:.....	77
3-معركة ليبانت ونتائجها:.....	77
ا-معركة ليبانت (07 تشرين الاول1571 م):.....	80
ب-نتائج معركة ليبانت:.....	81
4-التحالف الحفصي الاسباني الثاني:.....	81
ا-نهاية احمد الحفصي:.....	82
ب-تعيين عبد الله محمد بن الحسن احفصي سلطانا من طرف الاسبان:.....	84
المبحث الثالث: الضم النهائي لتونس للدولة العثمانية:.....	84
1-حملة الدون الخوان على تونس:.....	87
2-سنان باشا والقضاء على الوجود الحفصي والاسباني:.....	86
ا-تحرير سنان باشا لقلعة حلق لوادي:.....	87
ب-تحرير حصن الباستيون:.....	88
3-تونس ايالة عثمانية:.....	89

الخاتمة:.....	91
الملاحق:.....	95
المصادر والمراجع:.....	102
فهرس المحتوى:.....	109